العصافير لا تطلب تأشيرة دخول

نزار قباني

" كل الكمية المعطاة من الحرية في الوطن العربي لا تكفي كاتباً واحداً . "
. الروائي يوسف إدريس .

العصافير لا تطلب تأشيرة دخول

هذه الكلمات ، التي ألقيتها خلال رحلاتي الشعرية في العالم العربي، هي الإفتتاحيات التي سبقت دخولي لحظة الشعر .

وهي – كما أتصور – الباب الذي لابد من اجتيازه للوصول إلى القسم الداخلي من قصر الشعر .

وبتعبيرٍ آخر ، إنها الدوزنات الموسيقية الأولى التي تسبق دخول المغني ، وانفتاح الستارة ..

ولا أدري لماذا كنت أتصور ، أنه لا يجوز اقتحام الغرفة التي تنام فيها القصيدة .. قبل طرق الباب أو الاستئذان .. أو التأكد من أن القصيدة في حالةٍ تسمح لها باستقبالنا ..

فتحضير الجمهور لاستقبال الشعر ، هو شيء أساسي ، وهو يشبه إلى حد ما بعيد تحضير طفلٍ لدخول المدرسة لليوم الأول .. أو تحضير الأرض الزراعية لاستقبال البذور ، أو تحضير الممثلة المسرحية نفسها قبل مواجهة الأضواء ..

ربما كان هذا الموقف طفولياً ،وعاطفياً ،ولا مبرر له . ولكن قناعاتي في الخمسينات والستينات ، كانت تفرض عليَّ أن أكتب مقدمات القصائد التي سأقرؤها في الأمسية الشعرية ، قبل تلاوة القصائد ..

كنت في تلك الأيام مؤمناً (بالدوزنة الشعرية) ..

ومهما تكن وجهة نظركم ، فإن هذه المقدمات لم تكن مجرد إيقاعات موسيقية ، أو لعبة مهاراتٍ لغوية ، ولا كانت حديثاً في المطلق ، وإنما

كانت حديثاً في الشعر ، والحب ، والسياسة ، والحرية ، والديمقراطية ، والثورة ، وفي كل شؤون الحياة العربية ، وهموم الإنسان العربي .

لذلك فإن نشرها اليوم ، لا يعتبر عملاً عبثياً أو استعراضياً ، وإنما هو عمل يحمل كل معاني المسؤولية والالتزام الشعري والقومي .

هذه المقدمات ، قرئت على امتداد الخريطة العربية ، من البصرة إلى وهران، ومن الشارقة إلى طنجة ، ومن دمشق إلى قرطاج وفاس ومكناس .. ومن بيروت إلى رأس الخيمة ..

رحلة طويلة .. طويلة .. كان الشعر فيها ملك الملوك .. وكانت الكلمات تدخل إلى المدن العربية وهي أميرة .. وتخرج وهي أميرة ...

وخلال هذه الرحلات الشعرية ، التي مشطتُ بها الوطن العربي من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب ، اكتشفتُ أن الكلمة هي صاحبة السلطة الحقيقية ، وهي الحاكمة بأمرها ، وهي المليكة التي لا يمكن لأحد أن يخلعها عن العرش .

كما اكتشفتُ أن الكلمة ، كالمرأة ، يمكنها إذا صممت ، أن تنقل الجبالَ من مكانها .. والبحارَ من مكانها .. والحكومات من مكانها .. وتعيد كتابة التاريخ ، ورسمَ الكرة الأرضية ..

صحيحٌ ، أن بعض الحكام يجد في الكلمة منافستهُ (وضرتهُ) ..

وصحيحٌ أن بعضهم يقصُ شعرها .. أو يقصُ لسانها .. أو يفرض عليها أن تلبس الحجاب حتى لا تثير الناس أو تبهرهم ...

وصحيحٌ أن بعضهم ، يريد من الكلمة أن تكون جاريته .. وعشيقته ..

وشريكته في الفراش .. لا شريكته في الحكم أو في الحياة . وهو من أجل ذلك مستعدٌ أن يعطيها كل ما في بيت مال المؤمنين من ذهبٍ .. وفضةٍ .. وحجارة كريمة ..

وصحيحٌ ، أن بعض الحكام ، يسجن الكلمة في سجن النساء .. ويضع في قدميها الحديد .. ولا يسمح لها بتدخين سيجارة ، أو بقراءة جريدة ، أو بمطالعة كتاب ، أو حتى باستعمال قلم رصاصٍ لكتابة وصيتها ..

ولكن برغم كل المقاومات الأرضية ، وبرغم كل الرادارات وشبكات الصواريخ التي تغطي السماوات العربية .. فإن الكلمات ستبقى مستمرةً في طيرانها رغم كثافة النيران ..

ولن تستطيع أي سلطة أن تمنع الكلمات من الهبوط في أي مطارٍ عربي تختاره ..

لأن العصافير لا تطلب تأشيرة دخول ..

بيروت 20\9\1981

نزار قباني

المقدمات التي استهل بها الشاعر أمسياته الشعرية في عدد من العواصم العربية

دمشق

آذار (مارس) 1979

بدعوة من اتحاد الطلبة السوريين

1

قراءةُ الشعر في دمشقَ لها مذاقٌ مختلف .. ونكهة أخرى . وقراءةُ الشعر على طلاب وطالبات وطني ،هي نوعٌ من العزف المنفرد على أعصاب القلب .

في دمشقَ ، لا أستطيع أن أكون محايداً ..

فكما لا حيادَ مع امرأةٍ نحبها .. فلا حيادَ مع مدينة أصبح ياسمينها جزءاً من دورتي الدموية ، وأصبح عشقي لها فضيحةً معطرةً تتناقلها أجهزةُ الإعلام.

هذه المدينة تخضني ، تشعلني ، تضيئني ، تكتبني ، ترسمني بالون الوردي ، تزرعني قمحاً وشعراً وحروفاً أبجدية ، تغيرُ تقاطيع وجهي ، تحددُ طولَ قامتي ، تختارُ لون عيني ، تؤكدني ، تجددني ، تقبلني على فمي فيتغيرُ تركيبُ دمي ..

في الشام لا أستطيع إلا أن أكون شامياً .

لا أستطيع إلا أن أكون حمامةً .. أو بنفسجةً .. أو عريشة عنب ..

لا أستطيع إلا أن أكون قصيدةً .. أو مئذنةً .. أو نهداً .. أو سفرجلة ..

لا أستطيع إلا أن أكون سمكةً في الفرات ، أو سنبلة في حوران ، أو صدفةً على رمال اللاذقية .

في الشام ، لا أستطيع إلا أن أكون فيلسوفاً .. أو واعظاً .. أو حكيماً ..

لا بد لي أن أكون في داخل الجنون ، أو في داخل الشعر ..

لا بد لي أن أخترع لغةً استثنائية لهذه المدينة الاستثنائية .

لا بد من الذهاب إلى الحد الأقصى للعشق .. أو إلى الحد الأقصى للشعر .. حتى أتفاهم مع دمشق ، وأتفاهم معكم ...

2

الواقع أن دمشقيتي هي نقطة ضعفي وقوتي معاً ..

إن دمشق تتكمش بي كما يتكمش الرضيع بثدي أمه ..

إنـها تسكنني كما يسكن الله وجه امرأةٍ جميلة ..

مزروعة بي دمشق ، كما الحلق الأسباني مزروعٌ في آذان الإسبانيات . مستوطنة في صوتي ، وفي حبري ، وفي دفاتري ، كما يستوطن السكر في شرايين العنقود ..

كل حروف أبجديتي مقتلعة حجراً حجراً من بيوت دمشق ، .وأسوار بساتينها ، وفسيفساء جوامعها ..

قصائدي كلها معمرة على الطراز الشامي ..

كل ألفٍ رسمتها على الورق هي مئذنة دمشقية ..

كل ضمةٍ مستديرة هي قبة من قباب الشام ..

كل حاءٍ هي حمامة بيضاء في صحن الجامع الأموي ..

كل عينٍ هي عينُ ماء ..

كل شينٍ هي شجرةُ مشمشٍ مزهرة ..

كل سينٍ هي سنبلة قمح ..

كل ميمٍ هي امرأةٌ دمشقية .. وما أكثر الميمات في دواوين شعري ..

وهكذا تستوطن دمشق كتابتي ، وتشكل جغرافيتها جزءاً من جغرافية أدبي ..

لا يمكن الفصل أبدا بين الحبر الذي أكتب به ، وبين أنهار دمشق السبعة ..

لا يمكن الفصل أبدا بين صوتي وبين أصوات المؤذنين الذين يؤذنون لصلاة الفجر في أحياء الميدان ، والقيمرية ، وسوق ساروجة ، والصالحية ..

لذلك أعتبر دعوة اتحاد الطلبة السوريين لي لقراءة شعري في دمشق .. دعوةً للقاء طفولتي وتاريخي ..

وما أحوجني بين الحين والحين على لقاء طفولتي .

3

في هذه الأمسية الجامعية ، يأخذ صوتي بعداً ثالثاً ..

فالطلاب ، كانوا على امتداد تاريخي الشعري ، جيشي ، ورئاسة أركاني ..

كانوا أدق تراجمتي . وأعظم سفرائي ..

هم الذين طبعوا قصائدي في ذاكرتهم قبل أن أكتشف المطبعة ، وهم الذين نقشوني على مشاعرهم ، وحفظوني في ضمائرهم ، قبل أن تكون أشرطة التسجيل .

وهم الذين بحبهم اغتنيتُ ، وبشفاههم غنيتُ .. وبعيونهم بكيتُ ..

إنني هنا لا أجامل ، ولا أضخم الأشياء ، ولكنني أسجلُ اعترافاً أدبياً لا بد من تسجيله ، فلولا الطلابُ - والطالباتُ طبعاً – لضاقت مساحة الشعر – وجف ماء القلب .

إن الشعر يبقى بخير طالما هو معكم ، وطالما ظللتم تعطونه من إيقاعات نبضكم ، وتفجر شبابكم .

أما الخريجون ، فإن أكثرهم – مع الأسف – يفك ارتباطه مع الشعر عندما يغادر باب الجامعة ، ويتحول إلى جسر من الأسمنت ، أو زهرةٍ من مشتقات البلاستيك ..

أيها الأحباء :

ستكون قراءتي الشعرية هذه الليلة سفراً في أقاليم المرأة والوطن .. أي في الأقاليم التي لا يعتدل فيها الطقس .. ولا تصدق النبوءات .

قد تكون الرحلة متعبة ، وقد تحرمكم النوم والطمأنينة ، ولكن من قال إن وظيفة الشعر هي أن يحمل لأجفانكم النوم ، ولقلوبكم الطمأنينة .

إن وظيفة الشعر هي أن يغتال الطمأنينة ..

وهذا ما قررت أن أفعله هذه الليلة ..

دمشق آذار (مارس) 1979 .

بيروت

قاعة الإحتفالات الكبرى

الجامعة الأميركية 12 أيار (مايو) 1980

1

هذه الجامعة الأميركية أخيراً ، بعد خمس سنواتٍ من الغربة ، والتمزق .. والضياع على أرصفة الحزن .

هذا هو منبرها الذي كنت في الخمسينات ، أمتطيه كحصانٍ أبيض .. وأقفز من نجمة إلى نجمة .. ومن غيمةٍ إلى غيمة .. وأمر به كالفاتحين تحت بوابة الشمس ..

آهٍ .. كم اشتقت أليكم .. وإلى الشعر ..

آهٍ .. كم اشتقت إلى أقلامي ، ودفاتري . وخربشاتي ..

آهٍ .. كم اشتقت إلى صوتي الهارب مني ..

آهٍ .. كم اشتقت إلى قلبي ..

آهٍ .. كم اشتقت إلى ضحكة حبيبتي .. إلى عطرها المدرسي .. إلى كتبها .. إلى أصابعها الملوثة بالحبر الأزرق .. إلى حقيبتها الجلدية المعلقة بكتفها .. إلى خواتمها .. إلى أساورها .. إلى صنادلها .. إلى شعرها الغجري الذي كان يسافر في كل الدنيا ..

سنوات خمس ، كنت أبحث فيها عن الشعر .. وعنكم .. وعن نفسي . لم

أكن إنساناً طبيعياً .. ولا كانت بيروت طبيعية .. ولا كانت لغتي ، ولا أصابعي ، ولا عواطفي طبيعية .. وأنتم كنتم مثلي غير طبيعيين ..

فحين يفقد الشاعر شهية الشعر لا يكون طبيعياً ..

وحين يفقد العاشق شهية العشق ، يصبح مثل الرجل الإلكتروني يتحرك على البطارية .. ويقبل حبيبته على البطارية .. ويرقص معها على البطارية ..

لذلك طويت أوراقي ، واعتذرت من الشعر .. لأن الاقتراب من الشعر ، يقتضي حداً أدنى من الطهارة ، والحضارة ، والرقي النفسي ، لم أكن أملكه ، ولا كنتم تملكونه ، في زمن الانهيارات العصبية .. والجنون .

سنواتٌ خمسٌ من الخراب العاطفي والشعري . حتى عثرت عليكم أخيراً ، فركضت نحوكم فاتحاً ذراعي .. كي أتأكد أن الشعر لا يزال موجوداً .. والحب لا يزال موجوداً .. والله لا يزال موجوداً ..

فشكراً لكم لأنكم أعدتموني إلى الشعر ..

وأعدتموني إلى الله ...

2

تفتح لي قاعة (الأسمبلي هول) ذراعيها .. فأدخل ...

كلما أردت أن أختبر لياقتي الشعرية .. أذهب إلى الجامعة الأميركية في بيروت ..

أشم رائحة قصائدي التي ألقيتها هنا في الخمسينات وبقيت عالقة بسقف القاعة وجدرانها ..

رائحة الشعر لا تذهب ..

إنها تشبه رائحة امرأة أحببناها في شبابنا الأول ، ولا تزال تطاردنا رائحتها من مطار إلى مطار.. ومن فندق إلى فندق ..

القاعة تضيق بعد كل بيت شعر ..

والكراسي تزداد التصاقاً ..

والسقف ينحني قليلاً ليشم رائحة النساء الجالسات .. وليلعب بعقودهن وأساورهن ..

بعد خمس سنوات من الحرب الأهلية .. ذهبت إلى قاعة (الأسمبلي هول) في الجامعة الأميركية ، لأطمئن على بيروت .. وعن الشعر ..

وجدتهما جالسين في الصف الأول .. وبكيت عندما رأيتهما .. (كطفل أعادوه إلى أبويه ..) .

لم تتغير بيروت كثيراً .. صحيح أنها كانت شاحبةَ قليلاً .. وناحلةً قليلاً ..

ومتعبة العينين من قلة النوم .. ولكنها كانت بيروت الجميلة التي تلوح بشرتها شمس البحر .. وشمس الحرية ..

كانت تصغي إلى الشعر بابتسامة طفلةٍ ، وطمأنينة حمامة ..

كانت بيروت تجلس في الصف الأول .. ومعها شقيقها الأصغر .. الشعر ..

لم أسألهما من أين جاءا ؟ .. من بيروت الغربية أم من بيروت الشرقية .. من ضهور الشوير .. أم من صور والنبطية ..

هذه أسئلة لا يطرحها الشعر .. لأن الشعر يطير دائماً فوق الجغرافيا ...

3

ما جرى في (الأسمبلي هول) كان شهادة عظيمة لبيروت وللشعر ، وتأكيداً جديداً على أنه لا أحد يستطيع أن يقتل بيروت .. أو يقتل الشعر ..

بعد خمس سنوات من الموت والدمار ، دخلت إلى القاعة الكبرى ، فوجدت كل الأشياء في محلها .. كأنني تركتها منذ خمس دقائق .. لأدخن سيجارةً في حديقة الجامعة .. وأعود ...

الحنان ذاته .. بريق العيون ذاته .. ردود الفعل ذاتها .. الإصغاء الحضاري ذاته ..

حتى العصافير التي كانت تتجمع على النوافذ لتسمعني في الخمسينات والستينات .. لم تأتِ هي .. وإنما أرسلت أولادها لتسمعني ..

وما قلته عن العصافير .. ينطبق على الطلاب والطالبات .. فماذا تعني هذه الملاحظة ؟

إنها تعني أن زمان الشعر ، هو خط هندسي لا انقطاع فيه ، وأن الشاعر الذي كتب قصيدة حب على حيطان مغارته في الصين ، أو في أفريقيا .. أو في بلاد الإسكيمو .. أو في صحراء نجد ، لا يقل أهميةً و (حداثةً) عن الشاعر الذي يكتب قصيدته في مقهى (الفلور) في الحي اللاتيني في باريس ..

كل قصيدةٍ جميلة .. هي قصيدةٌ (حديثة) ..

ولو كتبت سنة 7000 قبل الميلاد .

4

ويسألك سائل : ماذا تعني لك بيروت شعرياً ؟

ليس سهلاً أن نشرح لماذا نحب امرأة .. أو نحب مدينة . من طبيعة الشروح أن تغتال الأشياء التي نشرحها.

فهناك علاقاتٌ تنشأ بينك وبين حجر صغير .. أو بينك وبين شجرة .. أو بينك وبين مقعد في حديقة .. تنسيك كل علاقاتك القديمة .

أكيد أن بيروت ليست نيويورك ، أو برلين ، أو طوكيو ، أو سان فرانسيسكو ..

فهناك مدن أطول من بيروت .. وأعرض من بيروت .. وأغنى من بيروت ..

ولكن العلاقات مع المدينة لا تقاس بالطول أو بالعرض ولا تحسب بالمقاييس الهندسية .

إن ما يحدد علاقتي بالمدن هو قدرتها على (تحريضي شعرياً) ..وعلى إعطائي الضوء الأخضر لأبدأ بالكتابة .

وبيروت كانت من هذه المدن النادرة التي حرضت أصابعي عليَّ .. وحرضت صوتي عليَّ .. وحرضت دفاتري عليَّ ...

إنها لم تتركني لحظة واحدة في لحظة سكون ..

ولم تمنعني من التجول فوق أوراقي بعد الساعة السادسة مساءً ..

ولم تأخذني إلى محكمة أمن الدولة ، لأدفع رسوماً جمركية على أفكاري .. وأشعاري ..

عن بيروت لم تضطهدني شعرياً .. بل كانت تحمل فنجان القهوة إلي .. وتضعه على مكتبي .. وتتركني أشتغل ..

فأنا لا أستطيع أن أتعامل مع مدينة تجلس فوق أصابعي .. أو تسرق أصابعي .. أو تكسر أصابعي ..

إنني لا أتكلم عن بيروت السياحية ، ولا عن بيروت شارع المصارف ، ولا عن بيروت الشقق المفروشة .. والتسهيلات والخدمات ..

فبيروت لها عشرات الوجوه ..

ولعل وجهها الأحلى هو ذلك الوجه الذي كان يغسلني بأمطار الشعر ...

بيروت 1980\5\12

بيروت

رابطة خريجي الليسيات اللبنانية - الفرنسية

فندق فينيسيا

1970

سنة مضت منذ أن التقينا آخر مرة في فندق فينيسيا .

كل الوجوه التي عرفتني وأدمنتني ، وعرفتها وأدمنتها ، تحاصرني من جديدٍ حصاراً أتمنى لو لا يكسر أبداً . من ذا الذي يحاصر بسورٍ من العطر والأهداب ويتمنى أن يفلت من حصاره ، ويرفض نعمة الله عليه .

أنا أعرف العطر وأعرف صاحباته ، وأعرف المعبد وأعرف عابداته ، وأعرف الشعر وأعرف قتيلاته ..

أعرف الوجع التي تتركه الكلمات التي تقال ، وأعرف الوجع الأشد وجعاً الذي تتركه الكلمات التي لا تقال ..

سنة مضت على لقائنا الأول .

الصالة المترفة ذاتها . والمقاعد الوثيرة ذاتها ، والضوء الخافت ذاته ، ورائحة قصائدي لا تزال بعد مرور عام تعشعش في الزوايا كالبهارات الهندية العنيفة ..

نعم . يا أصدقائي ن الشعرُ بهارٌ هنديٌ لاذع ، يحرق كاتبه ، ويحرق سامعه ، ويحولهما على جمرٍ أحمر ..

ومن أجل نجاح هذه الأمسية ، أتوسل أليكم أن تتحملوا جمري وحرائقي . أتوسل إليكم أن تتحملوا زغردة النار في ثيابكم .

فالشعر هو حوار الأشياء التي تحترق . هو احتكاك أعواد الثقاب ببعضها ..

والأمسية الشعرية – في أبسط معانيها – هي حفلة ألعاب نارية تنتهي باحتراق السماء والأرض والسقف والجدران والمتفرجين جميعاً ..

ولكي تحترقوا كأشجار الغابة .. دعوناكم ..

ولكي تضيئوا كشمسٍ إفريقية .. دعوناكم ..

ولكي تكسروا ، كالأنهار الغاضبة سدودكم ، دعوناكم ..

ولكي تهربوا من أسمائكم ، وتذاكر ولادتكم ، وعناوينكم ، وأعماركم .. وتثاؤب أيامكم .. دعوناكم ..

فالشعر هو سفرنا خارج التاريخ ، وخارج حدود الأشياء .. وخارج أنفسنا ..

الشعر هو دخولنا منطقة انعدام الوزن ن وتخلصنا نهائياً من جاذبية الأرض ، ومن ضغط أفكارنا وثيابنا علينا ..

بالشعر وحده ، نفتح ثقباً في جدار الكلس والنحاس الذي هو حياتنا ..

بالشعر وحده ، نكسر باب المعتقل الذي لا يسمح لنا فيه ، أن ندخن .. أو أن نبكي .. أو أن نصرخ .. أو أن نثور .. أو أن ننتحر .. أو أن نكتب رسائل الحب أو نتلقاها .. أو أن نلصق على الجدران صور حبيباتنا ..

بالشعر وحده .. نفتح ثقباً في لحم الضجر ..

بالشعر وحده .. نقول ما نريد لمن نريد ..

بالشعر وحده .. يصير الله أكثر اقتراباً .. وتصبح عينا حبيبتي أشد سواداً ..

فندق فينيسيا .. مرةً أخرى ..

كلنا قدامى في هذا المكان ..

الضيفُ الوحيدُ الجديد الذي ينضم إلينا هذه الليلة هو .. الحزن ..

هل تعرفون هذا الصبي الرمادي النظرات الذي هو الحزن ؟

هل تعرفون هذا البستاني الذي يملأ مزهرياتنا وروداً صفراء ؟

هل تعرفون هذا المسافر المجهول الذي ينقر بأصابعه النحيلة الشاحبة أبوابنا كلما هبط الظلام ؟

من منا لم يزره الحزن في السنة الماضية .. من منا لم يبلل الدمع بياض شراشفه ؟

من منا لم يسافر في عقيق جرح ؟

من منا بعد حزيران لم يتحول إلى جرحٍ يمشي على قدمين ؟

أنا شخصياً أعطف على حزني وأحبه ..

كان أعنف حزنٍ أعرفه بحياتي ، ولكنه كان أيضاً أجمل حزن ..

وشعري ، هو الآخر ، عرف الحزن الجميل ..

وتعلم كيف يكتب بالأقلام الرمادية على أوراق رمادية ..

تعلم كيف يستعمل اللون الأصفر ..

للمرة الأولى .. أستعمل في شعري اللون الأصفر ..

للمرة الأولى .. أرسم عنق من أحبها بالأصفر ، معصمها بالأصفر .. صوتها بالأصفر .. ضحكتها بالأصفر ..

للمرة الأولى .. يصبح الشحوب عندي سيد الألوان ، ويصير طعم الفجيعة أطيب من طعم كل الخمور الفرنسية ..

مر عامٌ منذ أن افترقنا ..

لا أعرف أي نوع من الشعر سأقرأ عليكم .

الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني سأقرأ قصائد لا عقل لها .. قصائد هي حصيلة تمزقي ، وغضبي ، وضياعي ، وشكي ، وقرفي ، وحبي ، وكرهي ، وجنوني ، خلال عام ..

سأقرأ كل الأشياء المجنونة وكل الأشياء العاقلة .. كل الأشياء البيضاء .. وكل الأشياء السوداء .. وكل القصائد القديسة .. وكل القصائد الشريرة .. وكل القصائد المتداولة كالنقد .. وكل القصائد المطاردة كالأفيون .. وكل القصائد المرضي عنها ، وكل القصائد المغضوب عليها – وهي بيني وبينكم – أحب قصائدي إليَّ .

سأفتح دفاتري كيفما أتفق .. وأقرأ كيفما أتفق .. ولن أترككم حتى تشتعل النار في ثيابكم، وحتى يختلط رمادي ورمادكم في قارورةٍ واحدة .

ألم أقل لكم منذ البدء ، أن الأمسية الشعرية هي حفلة ألعاب نارية ، تفترسني وتفترسكم في وقت واحدٍ ..

أيتها الصديقات ، أيها الأصدقاء ، لا تخافوا نار الشعر .. فإن الإنسان العظيم هو الإنسان الذي يحترق .....

بغداد

11 شباط (فبراير) 1979

الإتحاد العام لنساء العراق

أيتها الصديقات

في عام 1969 جئتُ إلى بغداد لألقي قصيدةً ...

وبعد قراءة قصيدتي ، التقيتُ بقصيدةٍ ثانية اسمها (بلقيس) وتزوجتها ..

وأقمنا قبل عشر سنواتٍ ، أول مؤسسةٍ وحدويةٍ بين قلبين .. وبين وطنين ..

مؤسستنا الصغيرة هذه ، كانت رائدةً وطليعيةً وشجاعة . وكنا – بلقيس وأنا – نطمح إلى أن نكون مثالاً ونموذجاً لوحداتٍ أخرى قادمة ، تجعل سماء الوطن أكثر اتساعاً .. ونجومه أكثر عدداً .. وبحاره أكثر زرقةً .. وأطفاله يتكاثرون بالملايين ، كما تتكاثر شقائق النعمان في أول الربيع ، بين الرطبة وأبي الشامات ...

عشر سنواتٍ ، ونحن ننتظر أن ينضم إلى نادينا الصغير عشاقٌ جدد .. يؤمنون مثلنا ، أن الحب هو الحجر الأساسي في تكوين الإنسان .. وفي تكوين الأوطان .

كان نادينا صغيراً وجميلاً ، تلتصق جدرانه ببعضها من فرط الحنان .. وفيه بسطٌ حمراء من شمال العراق ، وستائر من حرير الشام .. وبلحٌ من بساتين أبي الخصيب .. ومشمشٌ ، ودراقٌ ، من غوطة دمشق .. و(استكانات) شاي تضيء كأنها شموسٌ من العقيق .. ومنٌ وسلوى ، لا أدري حتى الآن ، إذا كانت حلاوتهما تأتي من عند الله .. أم من شفتي حبيبتي ...

لم يكن نادينا يشبه أي نادٍ آخر . فلا هو كنادي (لاس فيغاس) ، أو (مونت

كارلو) .. أو (كان) .. ولا هو كنادي (البلاي بوي) في لندن ، حيث ينزف دم الديوك العربية كل ليلة ، وتتهشم عظامهم كلما سقطت كرة (الروليت) على رقم من الأرقام ..

نادينا نحن ، أيتها الصديقات ، مفتوح الذراعين لكل الرجال والنساء والأطفال والعصافير ...

شرط الانتساب لنادينا بسيطٌ جداً ... وهو أن يكون طالب الانتساب ، عربياً منذ ولادته ، وعاشقاً منذ ولادته .

وأن يترك على باب النادي لدى دخوله كل عقده الإقليمية ، والفئوية ، والأنانية .. وكل ميراثه القبلي .. وأن يكون مستعداً أن يتزوج الوطن في أي لحظة ..

الزواج من امرأةٍ .. والزواج من وطنٍ .. مشروعٌ قوميٌ واحد .. ولا تصدقوا من يقول لكم أن المرأة شيءٌ .. والوطن شيءٌ آخر ..

فعندما يختار رجلاً امرأةً ليسكن معها ، أو ليسكن إليها .. فهذا يعني أنه اختار وطناً ..

والرجعيون ، والمعقدون ، والباطنيون ، هم وحدهم الذين يسحبون من المرأة جواز سفرها ، ويفرضون عليها نظام منع التجول ..

أيتها الصديقات :

يشاء قدري الجميل ، أن يدعوني (اتحاد نساء العراق) للاشتراك في هذا اللقاء الشعري .

فهل هذه مجرد صدفة ، أم أن النساء ، يعرفن جيداً أنني كنت خلال ثلاثين عاماً وطنهن كما كن وطني ....

أعتقد أن التفسير الثاني ، هو الصحيح .

وشكراً لبلقيس ، ولكل النساء العراقيات اللواتي كتبن معي قصيدتي .. فلولاهن لكانت كتابة الشعر مستحيلةً .. وحياتي مستحيلة ....

بغداد 1979\2\11

عمان

جمعية أصدقاء القدس
حزيران (يونيو) 1968

تدعوني جمعية أصدقاء القدس عشية مرور عامٍ على سقوط المدينة المقدسة ، لساعة تأملٍ وخشوع .

وبكل احترامٍ ، أرفض هذا الاقتراح الطيب .

فالتأمل والخشوع طقسان من طقوس الصوفية .

والصوفية تقاعد ذهني وانسحاب من الحياة والنضال . ولا مكان للصوفية والمتصوفين عندما تكون بلادنا مذبوحة من الوريد إلى الوريد ..

أرفض أيضاً .. أن يأخذ اجتماعنا طابع الوقوف على الأطلال ، والبكاء والاستبكاء ..

فأسوأ ما في شعرنا العربي هو حواره مع الأشياء الميتة .. وأسوأ ما نفعله أن نبقى على أرض المعركة التي خسرناها .. نجمع عظام موتانا .. ونلملم حدوات خيولنا المذبوحة ..

لا أريد أن تتحول هذه الأمسية إلى احتفال جنائزي ..

فحزيران كان يوماً واحداً من الزمان .. والزمان ليس يوماً واحداً ..

الزمان مجلد ضخم يضم تجارب الرجال ، وانتصاراتهم ، وهزائمهم .. أفراحهم ، وأحزانهم . حسناتهم وسيئاتهم ..

ولا يجوز أبداً أن يبقى حزيران أندلساً ثانية ننظم فيها المراثي ، وتؤلف

الموشحات .. ولا قبراً من الرخام نقصده كل عامٍ بأكاليل الزهر .. وملابس الحداد ..

حزيران حفرةٌ في التاريخ .. يجب أن نقفز فوقها ..

حزيران درسٌ .. وعبرةٌ .. وفرصة لترميم عظامنا ، لنقفز من جديد ..

حزيران إرادة جماعية للانتصار .. لا مقبرة جماعية .

حزيران جرح في الذاكرة .. وليس نصباً تذكارياً ، أو يوماً نضيفه إلى قائمة المناسبات التي تقفل فيها الأسواق ، والمدارس .. ونتوقف عن العمل .

إنني لا أغضب من حزيران لأنه أسال دمنا .. فقد تخثر دمنا بما فيه الكفاية .. وكان عليه أن يسيل ..

لا أغضب من حزيران إذا كوانا بسيفٍ من نار ، لأن جلودنا تخشبت بما فيه الكفاية ، وصارت بحاجة إلى حفلة كي ..

لا أغضب من حزيران إذا أبكانا ، لأن غدد الدمع في عيوننا قد توقفت عن العمل ..

لا أغضب منه إذا أغضبنا وأحزننا ، لأننا منذ عصورٍ نسينا نعمة الوجع وعبقرية الحزن ..

أيها الأصدقاء :

لن أقيم في هذه الأمسية قداساً لراحة شهداء حزيران .. ولكنني سأقرأ عليكم قصائد شديدة الانفجار ..

لأن حزيران ، على ما يبدو ، ألغى العقل العربي نهائياً .. وألغى الشعر .. وألغى النثر .. وألغى الخطابة ..

فلنخطط لتأسيس عصرٍ عربي جديد ..

وعقلٍ عربي جديد ...

ولغةٍ عربية جديدة ...

فكل ما قبل 5 حزيران 1967 خرقٌ بالية .. وأثاثٌ مستعمل .. وآثارٌ قديمة ..

عمان 1968\6\5

القاهرة

15 حزيران (يونيو) 1977

الكلمة التي ألقاها الشاعر في منزل أمير الشعراء أحمد شوقي (كرمة ابن هاني) بمناسبة تحويله إلى متحف .

نحن مدعوون الليلة إلى بيت شاعرٍ عظيم .

مدعوون للخروج من دائرة الحجر والأسمنت التي تحاصرنا ، والدخول في مملكة الحلم .

مدعوون للتعرف على أنفسنا ، والالتقاء بإنسانيتنا ..

فالإنسان يحتاج من حين إلى حينٍ إلى أن يتذكر أنه إنسان .

نحن مدعوون هذه الليلة إلى بيت أحمد شوقي .

الشاعر ليس هنا ..

إنه مسافرٌ منذ خمسةٍ وأربعين عاماً ..

مسافرٌ في أيامنا ..

مسافرٌ في ضمائرنا ..

مسافرٌ في لغتنا ..

مسافرٌ في فرحنا وبكانا ..

مسافرٌ في حريتنا ..

مسافرٌ في كتاب حبنا .. وعيون حبيباتنا ..

نحن في منزل الوحي ..

ولكن من كان يوحى إليه ليس هنا ..

إن مواعيده في السماء أنسته مواعيده على الأرض .

غير أنه قبل سفره ، أعطى مفاتيح بيته إلى وزارة الثقافة المصرية ، وكلفها أن ترعى ضيوفه ، وتكون سيدة البيت في غياب سيد البيت .

تنفتح أمامنا بوابات القصر المسحور ..

وتبتديء الرحلة في بلاد الدهشة ....

تخرج قصائد أحمد شوقي بالفساتين البيضاء ، والخضراء ، والزرقاء ، والوردية لاستقبالنا ، وهي تحمل أواني العطر ، ومراوح الريش ، وعقود الياسمين ، وعلى أكمامها كتب بماء الذهب :

((أدخلوها بسلام آمنين ..))

تخرج قصائد أحمد شوقي بعد خمسةٍ وأربعين عاماً من مخادعها كما تخرج العصافير إلى الحرية ..

نلاحظ أنها لا تزال صبية .. فلا جعدة على الجبين .. ولا ذبول في الشفاه .. ولا ترهل في الجسد .. ولا تراجع في طموح النهدين ..

القصيدة امرأةٌ جميلة لا تكبر .. ولا تشيخ .. وليس لها تاريخ ميلادٍ معروف ..

إنها تولد كلما قرأناها .. وتتوهج – كخاتم سليمان – كلما فركناها ..

تستيقظ (كرمة ابن هانيء) بعد رقادٍ طويل ..

تعود إلى العناقيد دورتها الدموية .

وتمتليء الكؤوس بالنار والعقيق ..

تستيقظ ليلى العامرية ، وتستيقظ تحت قفطانها حمامتان .. بريتان .. مذعورتان ..

ألم أقل لكم أن الحمام البري هو المسؤول عن جنون قيس بن الملوح .. وأن قيساً مات بضربة نهدٍ .. ولم يمت بضربة شمس ..

تسحب كليوبترا المصرية سيف العشق في وجه روما ، وتتحدى أساطيل قيصر .. ألم أقل لكم أن الحب هو قيصر القياصرة ؟

تستعيد (كرمة ابن هانيء) ذاكرتها الضائعة .

يتذكر الفم تاريخه حين كان وردةً ..

وتتذكر الوردة أصلها حين كانت فماً ..

ويبتديء مهرجان الضوء والصوت في العيون الكبيرة التي لا أتذكر أولها .. ولا أتذكر آخرها ..

الليل في عيون المصريات إيقاعٌ أسود .. مطرٌ أسود .. كتابة سوداء قضيت عمري كله في فك رموزها .. ولم أجد الحل الصحيح ، ولا أتمنى أن أجده ...

في طفولتنا الشعرية الأولى ، كانت (كرمة ابن هانيء) في خيالنا مدينةً خرافيةً أعمدتها من ذهب .. وقبابها من ذهب .. وأشجارها وأزهارها ، وسلالمها ، وأحواض مائها ، وأجساد نسائها من ذهب ..

خمسةً وأربعين عاماً ، ونحن نطوف حول المغارة المسحورة ، نشم رائحة البخور المنبعثة من المقاصير الجوانية ، ونسمع إيقاعات الشعر تأتي من البعيد البعيد ..

ولكن البروتوكول الشعري في تلك الأيام ، لم يكن يسمح لنا باجتياز باب المغارة ، واختراق الخط الذي يفصل الشاعر عمن يكتب لهم .. ولا يسمح برفع الكلفة بين العابد وبين المعبود ..

كانت (كرمة ابن هانيء) فردوسنا المفقود ..

وكان وجه أحمد شوقي بالنسبة إلينا وجهاً مستحيلاً ليست له ملامح محددة .. أو خطوطٌ محددة .. أو ألوان محددة ..

لذلك كنا نشكله في مخيلتنا كما نريد . فمرةً كنا نتصوره طاووساً إفريقياً .. أو غزالاً عربياً ..

ومرةً كنا نتصوره زرافةً طويلة العنق تأكل العشب من مراعي القمر ..

ومرةً كنا نتصوره سمكةً قزحية الألوان ، تخرج من البحر كل ليلة لتقرأ لنا قصيدةً زرقاء ..

بعد خمسةٍ وأربعين عاماً .. تغيرت الصورة تماماً ..

وسقط نظام التشريفات في الشعر ..

وألغيت كل البروتوكولات التي كانت تعتبر الشاعر وثناً .. أو ملكاً لا نستطيع أن نقابله إلا بربطة العنق السوداء .. والحذاء اللماع . والقبعة العالية ..

اليوم .. تغير الشعر والشاعر والموقف الشعري . وصار بإمكاننا أن ندخل إلى بيت الشاعر ، نتجول في باحاته وحجراته ، نتلمس أبوابه وجدرانه ، ونفتش عن الكنز المخبوء في دهاليزه ، ونلاحق أنفاس الشاعر ، وضربات قلبه في كل زاويةٍ من زوايا البيت الذي يكاد من شدة عنفوانه أن يطير ....

اليوم ندخل إلى بيت أحمد شوقي بملابسنا العادية ..

والدعوة عامة .

الشعر في أساسه هو من الأملاك العامة التي يستطيع كل إنسان يدعي أنها له .. أو أن له حصة فيها ..

الشعر والشاعر معاً .. هما أملاك وطنية قومية لا يستطيع أحدٌ أن يتصرف بها بيعاً .. أو شراءً .. أو رهناً .. أو مصادرة ..

لا بوابة للشعر ، ولا جدران حجرية له ..

إنه مسرحٌ في الهواء الطلق ، يدخل إليه الكبار والصغار .. في كل ساعات الليل والنهار .. مسرحٌ ليس له شباك تذاكر .. وليس فيه بنواراتٌ .. ولا مقصوراتٌ ملكية ..

في هذا المسرح القديم القديم الذي هو الشعر ، يجلس الناس في حضرة الكلمة متساوين ، متعادلين ، متشابهين .. تاركين خارج المسرح نعالهم .. وتيجانهم .. وألقابهم .. وسيوفهم .. ودفاتر شيكاتهم .. وفروقهم الطبقية ..

لا طبقية في الشعر ..

لا طبقية في كتابته ..

ولا طبقية في تذوقه ..

هذا ما بشرت به ، وقاتلت من أجله ثلاثين عاماً ..

فلقد كنت أحلم بديمقراطيةٍ شعرية ،لا يبيع فيها الشاعر جلده لأمير المؤمنين ، ليصنع منه طبلةً يقرعها إرضاءً لغروره ونرجسيته ..

كنت أريد أن أنقذ الشاعر من هواية السلاطين في تربية الحيوانات الشعرية الأليفة ، ومن ضغط الدنانير على صدره .. وأصابعه .. ووجدانه ..

كنت أحلم بديمقراطيةٍ شعرية ، يصبح فيها الشعر قماشاً شعبياً يلبسه كل الناس ، وحديقةً عامةً يتمدد على عشبها الأخضر ملايين المتعبين ..

وأخيراً .. كنت أحلم بديمقراطية شعرية لا فرق فيها بين من يملكون وبين من لا يملكون ، وبين من يحكمون ولا يحكمون .. وبين من تخرجوا من أكسفورد ، وهارفارد ، وبرنستون .. وبين من تخرجوا من حقول القصب والذرة على ضفاف الترع الحزينة .. وأخذوا شهاداتهم من جامعة الدموع ..

(كرمة ابن هانيء) تفتح لنا ذراعيها ..

نضع رؤوسنا المتعبة على صدر أحمد شوقي ونبكي ..

نشكو إليه سقوط دولة الشعر أمام دولة المقاولين ، والمرابين ، والسماسرة ، وتجار السلاح ..

نشكو إليه هذا الزمان العربي الذي انفصل نهائياً عن الشعر .. وتحول إلى نثر رديء ..

نشكو إليه قسوة هذه الصحارى العربية التي تحدها العصبيات القبلية من

شرقها ، وتحدها جبال الأنانية من غربها ، وتحدها الأورام النفطية من جنوبها .. والكلاب البوليسية من شمالها ..

نشكو إليه هذه السماء المعدنية الممتدة من المحيط إلى الخليج .. والتي تمطرنا ملوحةً وقرفاً وطاعوناً وجنونا ..

نشكو إليه كثافة الملح على شفاهنا .. وتراكم البشاعة في نفوسنا ، وجفاف الينابيع في داخلنا ..

نشكو إليه موت جميع العصافير الحب العربية .. مقتولةً برصاصٍ عربي ..

نشكو إليه حياتنا التي أصبحت رحلةً مرعبةً بين حبة فاليوم أخذناها .. وحبة فاليوم سوف نأخذها ...

نحن في منزل الوحي ..

ولكن الوحي الذي كان يطيب له السكنى في أجفان أحمد شوقي ، صار يخاف النزول علينا .. صار يخاف منا ..

صار يفكر ألف مرة قبل أن يلمس بجناحيه الذهبيين أرضنا ..

صار يخاف الدخول إلى منازلنا .. حتى لا نذبحه وهو نائم ..

صار يخشى الهبوط في مطاراتنا حتى لا يلقى عليه القبض بتهمة تعاطي الشعر بصورة سرية ..

آهٍ يا أرض الكتب المقدسة التي لا قداسة فيها لكتاب ..

ويا أرض النبوءات التي أكلت جميع أنبيائها ...

إلى قناديل أحمد شوقي نلتجيء ..

إلى حنان عينيه نلتجيء ..

إلى دفء كلماته نلتجيء .. بعد خمسة وأربعين عاماً قضيناها في الزمهرير .. لعل نار الشعر تخرجنا من العصر الجليدي الذي نحن فيه ، وتحولنا من أسماكٍ متجمدة إلى خيولٍ تجرح بحوافرها وجه المستحيل ..

على صدر أحمد شوقي نضع رؤوسنا المتعبة .. ونسترد طفولتنا .. ونقرأ صلاتنا .. علنا بالشعر نقترب قليلاً من ملكوت الله ...

القاهرة 1977\6\15

السودان

دار الثقافة – الخرطوم – 1969

هذا الذي يحدث لي ولشعري في السودان شيءٌ خرافي ..

شيءٌ لم يحدث في الحلم ولا في الأساطير ..

شيءٌ يشرفني .. ويسعدني .. ويبكيني ...

أنا أبكي دائماً حين يتحول الشعر إلى معبد ، والناس إلى مصلين ..

أبكي دائماً .. حين لا يجد الناس مكاناً يجلسون فيه ، فيجلسون على أهداب عيوني ..

أبكي دائماً .. حين تختلط حدودي بحدود الناس ، فلا أكاد أعرف من بنا الشاعر .. ومن بنا المستمع ..

أبكي دائماً .. حين يصبح الناس جزءاً من أوراقي .. جزءاً من صوتي .. جزءاً من ثيابي ..

أبكي لأن مدينةً عربية .. مدينةً واحدة على الأقل ، لا تزال بخير ..

والسودان ، بألف خير ، لأنه يفتح للشعر ذراعيه ، كما تفتح شجرة التين الكبيرة ذراعيها لأفواج العصافير الربيعية المولد .

السودان ينتظر الشعر كما تنتظر الحلوة على النافذة فارس الأحلام ، يأتي على صهوة جواده ، حاملاً لها قوارير العطر ، وأطواق الياسمين .. ومكاتيب الغرام ..

السودان ، يجلس أمام الشعر ، كما تجلس الأم أمام سرير أبنها ، تغمر خديه بالقبلات ، وتطعمه حلاوة اللوز والسكر .

السودان ، يلبس للشعر أجمل ما عنده من ثياب .. ويذهب للقاء الشعر ، كما يذهب العاشق إلى موعد الغرام ..

السودان بألف خير ..

لأنه ربط قدره بالشعر .. بالكلمات الجميلة ..

والكلمات ، أيها الأصدقاء ، جنياتٌ رائعات الفتنة ، يخرجن مرةً من عتمة الظنون ، ومرةً من عتمة الدفاتر ..

الكلمات طيور بحرية ، تخترق زرقة السماء ، دون تأشيرةٍ ، ودون جواز سفر ..

لم أكن أعرف ، قبل أن أزور السودان ، أية طاقة على السفر والرحيل تملك الكلمات .. ولم أكن أتصور قدرتها الهائلة على الحركة ، والتوالد ، والإخصاب ..

لم أكن أتخيل أن كلمةً تكتب بالقلم الرصاص على ورقة منسية ، قادرة على تنوير مدينةٍ بأكملها ، على تطريزها بالأخضر والأحمر .. وتغطية سمائها بالعصافير ..

الشعر قادر على اختراع مدنٍ بأكملها ..

قادر على أن يقول لها كوني .. فتكون ..

وأنا الذي زرعتني كلماتي في زوايا الأرض لا أعرفها .. وفي عيونٍ لا أعرفها .. وعلى شفاهٍ لا أعرفها ..

أشعر بالزهو والكبرياء .. حين أرى حروفي التي نثرتها في الريح منذ عشرين عاماً ، تورق وتزهر على ضفاف النيلين الأزرق والأبيض ..

فالشعر فن لا يكتمل إلا بالآخرين ..

والقصيدة إذا لم تسافر إلى وجدان الآخرين ، تبقى كالعصفور الميت في حلق صاحبها .. تبقى كالقبلة من طرفٍ واحدٍ ، لا طعم لها .. ولا نكهة ..

وكما كان نرسيس يعشق صورته المنعكسة في الماء .. يبحث الشاعر عن عيون الناس ليتمرى بها .. يبحث عن كل السطوح العاكسة التي تعيد له صورته مكبرةً ألف مرة ..

هذا ما يسمونه (النرجسية) ..

وما أحلى النرجسية إذا كانت تتيح لي أن أتخذ من عيونكم الطيبة مرايا .. أرى فيها شكل وجهي ، وشكل عواطفي ..

أيها الأحباء .

هذا الذي يحدث لي ولشعري في السودان شيءٌ لا يصدق .. وهو شهادة حاسمة على نقاء عروبتكم ..

فالعربي يرث الشعر كما يرث لون عينيه ، ولون بشرته .. وطول قامته .. ويحمله منذ مولده كما يحمل اسمه وبطاقته الشخصية ..

لذلك أتساءل ، كلما ألقيت شعري في مدينةٍ عربية ، لماذا لا يكون الشعر منطقة الظل والأمان ، على خريطة العالم العربي التي تحترق بأحقادها وخصوماتها ؟ .

لماذا لا تطير القصائد أسراباً من الحمام الأبيض فوق مدن عربية مطرزة بالخناجر .. والأظافر .. والخوازيق ؟ .

لماذا لا يكون الشعر البساط المريح الذي يتسع لكل الأحبة ؟ .

لماذا لا نلجأ إلى الشعر ؟ .

إلى هذه اللغة النظيفة في حوارنا مع بعضنا نحن العرب .. بعد أن تعبت أضراسنا ، وتعبت مخالبنا من تمزيق لحم بعضنا ؟

لماذا لا يكون الشعر شجرةً يأكل منها الجميع .. وثوباً يلبسونه .. ولغةً مشتركة يتكلمونها ..

العالم العربي ، أيها الأصدقاء ، بحاجة إلى جرعة شعرٍ ، بعد أن جف فمه .. وتخشب قلبه ..

إن الشعراء أيها الأصدقاء ، مدعوون لغرس السنابل الخضراء في كل زاوية من زوايا الوطن العربي ....

وها أنذا في السودان حاملاً وردةً الشعر .. وسنبلة المحبة ..

مفاجأة المفاجآت لي .. كانت الإنسان السوداني ..

الإنسان في السودان حادثة شعرية فريدة لا تتكرر ، ظاهرة غير طبيعية ، خارقة من الخوارق التي تحدث كل عشرة آلاف سنة مرة ...

الإنسان السوداني هو الوارث الشرعي الباقي لتراثنا الشعري . هو الولد الشاطر الذي لا يزال يحتفظ - دون سائر الأخوة – بمصباح الشعر في غرفة نومه .. وبخزانة الشعر المقصبة التي كان يعلقها المتنبي في خزانة ملابسه ..

كل سوداني عرفته كان شاعراً .. أو راوية شعرٍ .. ففي السودان أما أن تكون شاعراً .. أو أن تكون عاطلاً عن العمل ..

فالشعر في السودان هو جواز السفر الذي يسمح لك بدخول المجتمع ويمنحك الجنسية السودانية ..

الإنسان السوداني ، هو الولد الأصفى ، والأنقى ، والأطهر الذي لم يبع ثياب أبيه ، ومكتبته .. ليشتري بثمنها زجاجة خمر .. أو سيارة أميركية ..

هو الولد الوحيد في الأسرة العربية الذي لا يزال يصلي في معبد الشعر ، ويجثو في محرابه ..

هو الإنسان العربي الوحيد الذي لم يتشوه من الداخل ، ولم يبع تاريخه بفخذ امرأة بيضاء تسبح على شاطيء (كان) أو (سان تروبيز) ..

أيها الأحباء ..

أنا في السودان ، لأتلو عليكم شعري .. وأتمم ديني ...

فلقد أصبحت مقتنعاً ، أن من لا يزور السودان ، لا يكتمل دينه .. ولا تتأكد شاعريته ..

السودان

قاعة الصداقة في الخرطوم
كانون الأول (ديسمبر) 1980

ها أنذا مرة أخرى في السودان ، أتعمد بمائه ، وأتكحل بليله ، وأسترجع حباً قديماً لا يزال يشتعل كقوس قزح في دورتي الدموية .

عرفت في حياتي وفي رحلاتي كل أنواع اللآلئ البحرية .

عرفت اللؤلؤ الأبيض ، واللؤلؤ الرمادي ..

وعرفت اللؤلؤ الأخضر ، واللؤلؤ الوردي ..

وعرفت اللؤلؤ الأوروبي واللؤلؤ الآسيوي ..

واللؤلؤ الذي يزان بالقيراط واللؤلؤ الذي يزان بالقصائد والدموع ..

واللؤلؤ الذي يتدلى على صدور الكواكب ..

واللؤلؤ الذي يتدلى على صدور الجميلات ..

بعد ثلاثين سنة من الغطس تحت سطح الماء ، والغرق في بحار النساء اكتشفت أن اللؤلؤ الأسود هو الأغلى ، والأحلى والأكثر إثارة ..

كما اكتشفت أن الذي يملك مثقالاً واحداً من اللؤلؤ السوداني ، يمتلك كنوز سليمان ، والحور المقصورات في الجنات ، ويصبح ملك الإنس والجان ..

الحب السوداني ليس جديداً عليّ ..

فهو يشتعل كالشطة الحمراء على ضفاف فمي ..

ويتساقط كثمار المانغو على بوابة قلبي ..

ويسافر كرمح أفريقي بين عنقي وخاصرتي .

هذا الحب السوداني لا أناقشه ، ولا أحتج عليه ..

لأنه صار أكبر من احتجاجي ، وأكبر مني ..

صار وشماً على غلاف القلب لا يُغسل .. ولا يمسح ..

قبل عشرة أعوام جئت إلى السودان ومعي وردة الحب .. وقنديل الشعر الأخضر ..

بعد عشرة أعوام لا أعرف ماذا أحمل للسودان ..

فوردة الحب التي كنت أشكها في عروة ردائي .. أكلوها ..

وقنديل الشعر الأخضر الذي كنت أضئ به ليل العرب .. كسروه ..

حتى كلمات الغزل التي كنت أكحل بها عيني وطني .. صادروها .. فالكلمة العربية أدخلوها إلى " الكرنتينا " ..

لا لأنها تحمل جرثومة الكوليرا والملاريا .. ولكن لأنها تحمل جرثومة الحرية ..

والكلام العربي أصدروا بحقه مذكرة توقيف ، وأحالوه إلى محكمة تهريب المخدرات ..

حتى الأفعال .. والأسماء .. والضمائر .. أخذوها إلى أقبية المخابرات ..

حتى نون النسوة .. أدخلوها سجن النساء ..

ماذا تريدون أن تعرفوا عن الكتابة .. وعمن يكتبون .. وعن الثقافة والمثقفين .. وعن الكتب التي تشنق صباح مساء على بوابات المدن العربية ..

إن الكاتب العربي ، مطلوب حياً أو ميتاً .. وصوره ، وبصمات يديه ، موزعة على كل المخافر ومراكز الحدود . ورائحته ، أو رائحة حبره وحروفه ، تحفظها الكلاب البوليسية عن ظهر قلب ...

ها أنذا مرة أخرى في السودان ..

أبحث عن دفاتر حبي القديمة ..

ولكن ماذا تنفع العودة إلى دفاتر الحب القديمة ، ما دام العاشق قد تغير .. والمعشوق قد تغير .. والعشق ذاته قد تغير ..

كل شيء قد تغير في العالم العربي منذ أتيتكم للمرة الأولى عام 1969.

سقطت مؤسسة الحب في العالم العربي ، و قامت مكانها مؤسسات لتعليب لحم الإنسان ، و لسانه عقله، و سلخ جلد المواطن العربي ، و استعماله في صناعة الأحذية أو في صناعة الطبول ..

تراجع الحب إلى الوراء ..

و تراجع الورد ، و الشعر و الحلم ، إلى ما وراء الوراء ..

و صارت الكلمة جارية تضاجع السلطان ، و تحبل منه سفاحاً..

نعم أيها السادة:

هذا عصر الزنى بالكلمات ، و الحاكم العربي لا يريد الكلمة رفيقة، أو شريكة ، أو زوجة له .. و إنما يريدها خادمة تغسل له أصابع قدميه بماء الورد ، و الزعفران .. و جارية يقطف ثمار نهديها في الليل .. و يذبحها إذا أطل الليل .. و يذبحها إذا أطل الصباح على الطريقة الشهريارية ..

إن شهريار ، أيها الأصدقاء ، ليس خرافة ولا وجهاً فولكلورياً من قصصنا الشعبي .

إنه موجود في خبزنا اليومي وطعامنا وشرابنا وجرائدنا .. وفي خزائننا .. وتحت شراشفنا .. وهو يخرج إلينا من رغوة الصابون .. وبالوعة الحمام.. وشاشة التليفزيون ..

إذن ، فشهريار ليس صورة مجازية ، ولا فصلاً من التاريخ القديم . إنه فصل رئيسي من تاريخنا المعاصر .. بل هو كل تاريخنا المعاصر .

وشهريار ليس له وجه واحد ..

فعنده مجموعة كاملة من الأقنعة والأثواب التنكرية ..

فهو مرة يتجلي لنا بهيئة جبريل.. ومرة بهيئة دراكيولا.. ومرة يكلمنا بصوت أم كلثوم ومرة بصوت أدولف هتلر .

وشهريار لا يشتغل في فن الغرام ، ومراودة النساء فقط .. وإنما يشتغل في السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي التجارة ، وفي التخطيط ، وفي المقاولات ، وفي الصحافة ، وفي الإعلام .. وله في التلفزيون برنامج يومي ثقيل الدم ، يروع الكبار .. ويخيف الصغار .

إن شهريار هذا هو وراء كل مصائب العالم العربي

فهو يريد أن يصادر كل الزوجات من أزواجهن ..

ويريد أن يصادر كل الأصوات من حناجر العصافير ..

وكل الكلمات من دفاتر الشعراء .. وكل الألعاب من خزائن الأطفال .

وشهريار ، بطبيعة تركيبه ، ضد كل الألوان ، والأصوات ، والروائح .

فهو ضد الوردة ، لأن عطرها طيب .

وضد اللون الأسود ، لأنه لون حبر المطابع ..

وضد اللون الأزرق ، لأنه لون الحرية .

وضد السنابل لأنها ترتفع ، وضد الرياح لأنها تعصف ، وضد البحر لأنه يحرض على السفر ، وضد الشعر لأنه يحرض الإنسان على نفسه ..

وضد شعر حبيبتي ، لأنه يسافر .. ولا يقول لي إلى أين ذهب ؟ ...

إن مشكلة العالم العربي الأولى ، هي مشكلة علاقة الكاتب بشهريار . فشهريار يريد - حفاظاً على سلالته - أن يخصي الكاتب . والكاتب يرفض - حفاظاً على فحولته - الدخول إلى غرفة العمليات .

وهكذا يستنفر شهريار حرسه ، وعسسه ، وأجهزته ، لإقناع الكاتب بفضائل الخصي ..

ويستمر الكاتب في المقاومة .. لأنه يعرف مسبقاً ، أن تسليم جسده لأطباء الملك شهريار .. يعني تحوله بعد العملية إلى أنثى .. أو في أحسن الأحوال إلى خنثى ..

هذه هي حقيقة الصراع بيننا نحن الكتاب ، وبين شهريارات هذا الوطن الذي يبصق دمه ، من المحيط إلى الخليج ..

وأحب أن أطمئنكم باسمي ، وبالنيابة عن جميع الكتاب الشرفاء في الوطن العربي ، أننا لا نزال بخير .. ولا تزال عذريتنا بخير ..

وهذا من فضل ربي .. وفضل هذا الشعب العربي العظيم ..

ها أنذا مرة أخرى في السودان

فهل يمكنني أن أصرخ هنا كما أشاء وأنزف كما أشاء ؟

أنا أعرف السودان جيداً ، وأعرف السودانيين جيداً ، وأعرف أن صدورهم كغاباتهم مفتوحة للأمطار والريح ، وللبرق والرعد والحرية ..

لقد قبلت دعوة وزير الثقافة والإعلام للمشاركة في مهرجان الثقافة ، لأنني أولاً عاشق للسودان ، ولأن قصائدي هنا تعيش في بيت أمها وأبيها ...

غير أن فرحتي بهذا العرس الثقافي ، لا تمنعني من أن أسأل عن حال الثقافة في هذا العصر العربي الذي أصبح برميل النفط فيه ، أهم من كتاب (الأغاني) وكتاب (العقد الفريد) ومقدمة ابن خلدون ..

نعم أيها الأحباء .. النفط لا الشعر .. صار ديوان العرب ، والمتنبي يقف اليوم يتيماً .. وحزيناً .. ومكسور القلب .. أمام أبواب منظمة (الأوبك) .. فلا يجد من يستقبله .. أو يقدم له فنجان قهوة مُرَّة .. أو يشتري ديوانه بنصف دولار ..

لماذا الشعر إذن ؟

لماذا القصائد ؟

لماذا البحر الطويل ، والبسيط ، والوافر ، والكامل ، والرجز .. إذا كان بحر النفط هو سيد البحار ؟ ..

لماذا الفصاحة ، والبلاغة ، والبديع ، والبيان ، إذا كانت المصفاة التي تكرر النفط .. أهم من القلب الذي يكرر الدم ..

ثم ماذا يفعل شاعر مثلي رأسماله الكلمة .. إذا كان الكلام ذاته محجوزاً عليه ، وموضوعاً تحت الحراسة ..

اللغة العربية في طريقها إلى الانقراض .. لأنها لا تـُستعمل ..

والشفاه العربية في طريقها إلى الضمور .. لأنها لا تهتز ..

والأصابع العربية في طريقها إلى الزوال .. لأنها لا تتحرك ..

وما دام الكلام ممنوعاً من الكلام ..

وما دام الصوت ممنوعاً من أن يكون له صوت ..

وما دامت الدمعة لا تجد قناة تصب فيها .. فإننا سائرون حتماً إلى عصر انحطاطنا الثاني .. فعصور الانحطاط لا تجئ إلا عندما تـُمنع أمة من استعمال شفاهها ..

يا أحبائي .

لا تؤاخذوني على هذه المقدمة المكتوبة بالحبر الرمادي ..

فهل لديكم دواة خضراء أو زرقاء أو بنفسجية ، تعيروني إياها ..

ومع هذا سأحاول أن أخرج من الصخر ماءً ومن الأرض العطشى عشباً .. ومن العتمة نجوماً ..

وسأحاول في قراءاتي الشعرية أن أركز على شعر الحب .. لأن الحب في الوطن العربي .. هو هذا الطفل اللقيط الذي لا يعترف به أحد .. ولا تفتح أمامه الأبواب ...

ومن يدري ، ربما أشعل لي السودان قناديل الأمل .. وأرجع لي حبي الضائع .. وحبيبتي التي ليس لها أرض .. أو وطن .. أو عنوان ...

الخرطوم - كانون الأول (ديسمبر) 1980

الجزائر

نيسان (أبريل) 1979

... وهذه هي الجزائر أخيراً ...

عصفورة الحلم التي ما زلت أركض وراءها حتى أمسكتها ..

هذه هي الجزائر أخيراً ..

لؤلؤة الأساطير التي طالما حلمتُ بامتلاكها ..

هذه هي الجزائر أخيراً ..

حبيبتي التي بقيتُ جالساً في غرفة انتظارها ثلاثين عاماً ، حتى سمحت لي بدخول مملكة عينيها السوداوين .. وأذنت لي أن ألثم يدها .. وأعلق في أذنيها قصيدة حب ..

إن خمساً وعشرين سنة في انتظار سيدة نحبها ، شئ رهيب . شئ لا يحتمله الاحتمال ، ولا يصبر عليه الصبر .

فمن المسؤول عن هذا الزمن الضائع ؟

أنا ، أم هذه الأميرة التي يدعونها الجزائر ، أم هذا العقل العربي الذي يخاف مواجهة الحب .. فيلجأ إلى السحر ، وقراءة فناجين القهوة .. والمراسلة ..

إن الحب بالمراسلة ، صناعة قديمة ومتخلفة ،

كالمحاريث الخشبية ، والأنوال اليدوية ، لم تعد مقبولة في عصر العقول الإلكترونية ، والواقعية الاشتراكية ، وكسر جدار الصوت .

وأريد أن أسأل ، هل هناك رجل غيري في العالم ، بقي خمساً وعشرين سنة ، يشرب حبر الرسائل ، وهو مقتنع أن ما يشربه ، هو نبيذ فرنسي .. أو نبيذ جزائري !!

ثم أريد أن أسأل ، هل هناك رجل غيري في العالم بقي مربوطاً بحبل الحب العذري ، خمساً وعشرين سنة .. ولم يختنق .

من هو المسؤول إذن ، عن تخريب علاقاتي العاطفية مع المدن والنساء الجميلات ؟

من هو الذي سرق قمر الجزائر مني ، وسرق كل احتمالات البحر ، وكل احتمالات اللون الأزرق ؟

من الذي منعني من التجول الليلي في شعر حبيبتي ، وفرض على شعر حبيبتي النفي والإقامة الجبرية ؟

من الذي ثقب سفينتي وهي في عرض البحر ، وسرق حقيبة الشعر مني قبل أن تقرأها حبيبتي .. وسرق مني أشواقي التي فصلتها على مقاييس جسدها ؟

أكيد أن ثمة مخططاً عربياً لمكافحة العشق والعاشقين ..

وأكيد أن ثمة مخططاً عربياً لمنع النساء من قراءة الشعر ..

وأكيد أن نصف الرجال العرب هم ضد الشعر . لأنهم لا يريدون أن تتسرب المياه تحت فراشهم الزوجي ، ولا يريدون أن يتوزع ولاء محظياتهم أو ما ملكت أيمانهم ، ولا يريدون أي شغب في سجن النساء الذي يديرونه باقتدار وخبرة ..

والأكيد الأكيد أن الرجال لديهم حساسية مفرطة ضد الشعر ، لأن الشعر بطبيعته ضد الشركات المحدودة الأسهم والتي تتعاطى تعليب النساء ، ودفنهن تحت طبقة كثيفة من ملح الطعام .. حتى لا يفسدن ..

إنني لا أحاسب أحداً . فكل الحسابات التي نجريها مع اللواتي نحبهن حسابات خنفشارية لا تنتهي إلى شئ ..

لذلك ، فإن أفضل حساب نحاسب به واحدة نحبها ، هو أن لا نحاسبها ..

أيـها الأحبـاء ،

للمرة الأولى ، أدخل الزمن الشعري الجزائري ،

أكتشفه ، ويكتشفني .. أخترقه ويخترقني .

عرفتُ الأزمنة العربية كلها ، بضيقها واتساعها ، بذكائها وسخفها ، بارتفاعها وانحدارها ، بعافيتها ومرضها ، بحنانها وهمجيتها ، بجاهليتها وإسلامها ، بمآثرها وصغائرها ، بعهرها وتقاها ، ونظامها وفوضاها ، وجدواها وقلة جدواها ..

عرفتُ الأزمنة العربية كلها . بجناتها التي تجري من تحتها الأنهار ، وصحاراها التي تتوضأ بالنفط .. ورجالها الذين يتوضأون بدم النساء ، أو يتوضأون بدم مواطنيهم .. أو يتوضأون بدم الفكر ..

إنني أدخل الزمن الشعري الجزائري ، عله يعوضني عن الزمن العربي الآخر الذي تركته ورائي في المشرق ، وهو يترنح .. ويتكسر .. ويزني .. ويتعهر ..

أخل الزمن الشعري الجزائري ، هارباً من عصر يحاول أن يعلمنا اللغة العبرية رغم أنوفنا ، ويجعلنا رغم أنوفنا من سكان حارة اليهود .

من أجل هذا ، أحاول تهريب آخر الحروف العربية إليكم ، قبل أن تصبح اللغة العبرية هي اللغة الرسمية التي نكتب بها .. ونؤذن بها .. ونؤدي الصلوات الخمس بها ..

أحاول تهريب بعض القصائد العربية إليكم .. قبل أن يجئ العصر العبراني ، وقبل أن يصبح المتنبي ، وأبو تمام ، والمعري ، وابن الرومي ، وأبو فراس الحمداني ، أساتذة في الجامعة العبرية ، يتولون تدريس اللغة العربية ، باعتبارها لغة من اللغات المنقرضة ، كاللغات اللاتينية ، والمسمارية ، والهيروغليفية ..

قبل أن تحدث هذه الفضيحة القومية الكبرى ، وقبل أن نضيع آخر قطرة من دماء عذريتنا ، وقبل أن تصبح اللغة العربية عملة ملغاة ، وغير قابلة للتداول .. جئتُ إلى الجزائر ومعي حقيبة شعر مهربة .

نعم . حقيبة شعر مهربة ...

وأعتقد أن السلطات الجمركية الجزائرية ستسامحني حين تعرف أن المادة المهربة هي قصيدة حب .. أو قطعة من وطن ..

أيها الأحباء :

أفرك خاتم الشعر في إصبعي .. فتخرج لي الجزائر حورية خرافية الشكل ..

والشعر هو آخر خيط حنان يربط الإنسان العربي بالإنسان العربي ، وآخر ساعي بريد يحمل مكاتيب الهوى إلى قبائل متناحرة متذابحة .. لا تكتب رسائل الحب ولا تستلمها ..

والشعر ، هو آخر حصان جميل لم يقتلوه بعد .. وآخر وردة لم يأكلوها بعد .. وآخر شمس لم يطفئوها بعد ..

الشعر هو تعويذتي ، وسيفي ، ومفتاحي الذي أفتح به المناطق السرية في النفس العربية . هو القنبلة الموقوتة التي أضعها تحت خيمة أهل الكهف ، فتنفجر بهم ، وهم يمارسون العهر السياسي ، ويتسلون مرة بمضغ لحم النساء ، ومرات بمضغ لحم الوطن ...

الشعر هو الشهادة التي تؤكد وجودنا على قيد الحياة ، وبأننا لم نتحول إلى مجموعة من الديناصورات المنقرضة ..

والشعر ، هو هذه اللغة الراقية الباقية من عالم عربي رمى نفسه من مقصورة الشعر ، وتحول إلى نثر ردئ ..

والشعر أخيراً ، هو فرصتنا الأخيرة للخروج من حالة الحجر .. إلى حالة الماء .. ومن حالة الرماد إلى حالة النار .. ومن عتمة المحارة إلى شمس الحضارة ..

فكل الحضارات العظيمة تشكلت في رحم الشعر .. وترعرعت بين يديه ..

أيـها الأحباء :

تفتح لي أميرتي الجزائرية ستائرها .. وضفائرها .

أصعد إليها على سلالم الشعر الأسود ..

تنتابني قشعريرة الموعد الأول ، فلا أعرف أين تبتدئ يدي ، وأين تنتهي ضفائر حبيبتي ..

هذه الحالة المجنونة تنتابني دائماً ..

فكلما اكتشفتُ قطعة جديدة من الوطن العربي ، أشعر أنني اكتشفت قطعة من جسدي ..

لا فرق بين جغرافية الأرض العربية .. وبين جغرافية جسدي ..

كل جبال الوطن العربي هي امتداد لكبريائي .

وكل بحاره وأنـهاره وأمطاره هي امتداد لدموعي ..

إنني أشعر في بعض الأحيان أن مسامات جلدي هي مسامات الصحراء العربية ، إذا عرقتْ عرقتُ ، وإن نزفتْ نزفتُ .

وإذا انكسرت نخلة واحدة في مكان ما من هذا الوطن ، بصرف النظر عن اسمها وعمرها وجنسيتها ، أشعر أن الذي انكسر هو قلبي ..

هذا بصورة موجزة موقفي من الشعر .

إنه موقف شمولي يشبه موقف المطر .

ولن ترتاح نفسي ، ما دمتُ أشعر أن شبراً واحداً من هذه الأرض العربية لم يتبلل بمطر الشعر .. وأن ثمة مواطناً عربياً واحداً لم أتعرف عليه بعد ... ولم أستطيع أن أوصل إليه قصيدتي ...

فيا أحبائي على أرض الجزائر العظيمة :

إنني أحبس في عيوني كل دموع العرب ..

فاسمحوا لي أن أمطر قليلاً ....

الجزائر **1979/4/1**

أبو ظبي
(الإمارات العربية المتحدة)

نيسان (أبريل) 1976

للمرة الأولى .. أقرأ كتاب (أبو ظبي) ..

ينفتح البحر أمامي كسيف من الفيروز ، قبضته هنا .. ورأسه على حائط الصين العظيم ..

أستغرق في قراءة الرمل والبحر والشمس ، حتى ليخيل إليَّ في لحظة من لحظات الحلم ، أنني أسافر على ظهر سفينة يقودها البحار العربي الكبير ابن ماجد ، حاملين معنا من بلاد الشام ، ياسمين دمشق ، وفاكهة الغوطتين ، والمصاحف المخطوطة بماء الذهب .. لنقدمها للمؤمنين الجدد في شرقي إفريقيا وجنوبي آسيا ..

تثقب السفينة طهارة البحر وتقتحم عذريته . وابن ماجد واقف كالرمح في مقدمة السفينة ، عينٌ على أسماك القرش المتوحشة ، وعين على الشواطئ التي لم تلح بعد ...

أواصل قراءة كتاب (أبو ظبي) بمتعة لا توصف ..

أجلس مع صيادي اللؤلؤ ، وأدخن التبغ معهم ، وفي الليل أتمدد على الشاطئ الرملي وحدي ، أنتظر عودة السندباد ..

السندباد شغل طفولتي كثيراً كما شغل كل أطفال العالم . ولعله يشغلني اليوم أكثر من أي يوم مضى .

كان السندباد مواطناً عربياً خليجياً ، وكانت مراكبه وحباله تُصنع هنا .. وكانت قلوع أشرعته تُنسج هنا .. وكانت أحلامه الكبيرة تُصنع هنا أيضاً ..

إن السندباد ليس شخصية خيالية نجدها في الفولكلور العربي ، ولا هو مادة روائية تجلب لنا التسلية ، ولا هو واحد من الممثلين المحترفين على مسرح ألف ليلة .. ولا هو سائح أميركي يرى العالم من خلال آلة تصويره ، ودفتر شيكاته السياحية ..

إن السندباد هو في تصوري ، رمز هام جداً لانعتاق العربي من حدود المكان والزمان ، ونزوعه إلى المطلق . وهو أيضاً رمز لنزعة الكشف والاستقراء والبحث المستمر عن الأجمل ، والأنبل ، والأفضل .

السندباد هو اقتحام ، ووثوب ، وإبحار في المدهش والمستحيل .

والسندباد هو ثورة على المعلوم والمحدود والمستهلك ..

والسندباد هو السفر نحو المستقبل ، لا البقاء في مرافئ الماضي ..

والسندباد ، أخيراً ، هو التحول والتغيير ، والولادة بجلد عربي جديد ، وعقل عربي جديد .

فأين هو هذا السندباد الذي انتظرته في طفولتي ولم يأتِ ، وانتظرته في ربيع العمر ولم يأتِ .. وانتظرته في خريف العمر فلم يأتِ ؟ ..

أين هو السندباد ؟ هل مات مسموماً .. أم مقتولاً .. أم مات على أيدي رجال المخابرات لأنه تجرأ وطلب تأشيرة خروج للعلاج في إحدى مصحات الأمراض العصبية في الخارج ؟

أين هو السندباد ؟ إنني أعطي نصف عمري لمن يدلني على عنوانه الجديد .

أنا قادم من الزمن الردئ في لبنان ، لأبحث عن الزمن الجميل في (أبو ظبي) . قادم من القارة التي شاخت ، وتعبت ، وأكلت نفسها .. إلى القارة التي لا تزال تلبس ثوب العافية ..

قادم من الأرض التي فقدت ذاكرتها .. إلى الأرض التي تتشكل ذاكرتها من جديد .

كل أحلامي تركتها في لبنان مكسورة .

كل مراكبي تركتها ورائي غارقة .

كل دفاتري أكلتها النار ، أو أكلتها الكراهية .

والبحر الذي كانوا يسمونه البحر الأبيض المتوسط ، أخذوه إلى شاطئ مهجور ، وعصبوا عينيه ، وأطلقوا النار على قميصه الأزرق فمات .

أما عيون حبيباتي ، فلا تسألوني عنها ، فقد سرقوا كل كنوز اللؤلؤ الأسود المخبوءة فيها .. وهربوا ...

كل الجرائم مغفورة إلا سرقة اللؤلؤ الأسود من العيون الكبيرة ..

وكل الاغتيالات يمكن تفسيرها إلا اغتيال قصيدة شعر ...

يحاصرني الحزن من كل مكان .. فأقرر السفر ..

ولكن أين أسافر ؟ . ولماذا أسافر ؟ . ومن أجل من أسافر ؟

إن سفر الشاعر في الوطن العربي هو سفرٌ على لوح من الزجاج المهشم ، إن لم تنجرح أقدامك انجرحت أصابعك ، وإن لم تنجرح أصابعك انجرح قلبك ، وإن لم ينجرح قلبك انجرح ضميرك ..

آه .. كم سافرتُ في هذا الوطن العربي ، فوجدتني أخرج من دمعة لأدخل في دمعة أكبر .. وأجتاز حدود جرح قديم ، لأدخل في حدود جرح جديد .

ولكي يدخل الشاعر العربي سالماً ، ويخرج سالماً ، من رحلته الزجاجية هذه ، لابد أن يكون نبياً .. أو بهلواناً ..

وأنا مع الأسف لا أملك الموهبتين .

كل ما أملكه هو هذه العادة السيئة التي رافقتني منذ ولادتي ، وهي عادة قول الحقيقة .

ولأنني مصاب بهذا الانحراف الأساسي في تكويني ، ولأنني أعاني من هذه الفضيلة - الرذيلة ، ولأنني لم أكن في يوم من الأيام عضواً في نقابة كذابي الأدب ، أشعر بأنني غريب وضائع .. ومنفي عن الخريطة العقلية والنفسية للعالم العربي .

ولأنني أشتغل بمادة ممنوعة من التداول لدى العرب ، وهي الحقيقة ، تسد في وجهي بوابات الدول العربية ، وينظر إليَّ حراسها من ثقوب الأبواب متعجبين ومرتابين .. كأنني حيوان شعري نادر .

بعضهم يفتح لي نصف بابه ونصف قلبه ، وبعضهم لا يفتح لي لا بابه ولا قلبه ، وبعضهم يلاقيني بالورد الجوري ، وبعضهم يطلق خلفي كلاب الحي ، وبعضهم يذبح لي الخراف والنوق على الطريقة العربية .. وبعضهم يذبحني على الطريقة العربية أيضاً ...

يقولون لي ما أنتَ في كل بلدة ؟

وما تبتغي ، ما أبتغي جل أن يُسمَى

كذا أنا يا دنيا ، إذ شئتِ فاذهبي

ويا نفس ، زيدي في كرائهها قدما

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني

ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما ..

وإني لمن قوم كأن نفوسهم

بها أنف أن تسكن اللحم والعظما ..

سؤال طرحوه على المتنبي ، هذا الشاعر المسافر في العنفوان ، منذ أكثر من ألف عام ، فحدد بمثل هذا البيان الشجاع ، المنهج العام لرحلاته الشعرية ، ووضع بذلك أول مانيفستو للرفض والتحدي في الشعر العربي ..

فهل تغيرت الأمور منذ عصر المتنبي ؟ وهل الزمان الردئ الذي وجد المتنبي نفسه في مواجهته ، غير الزمان الردئ الذي يواجهه الشاعر العربي اليوم ؟

على تباعد المسافة الزمنية بين عصرنا وعصر المتنبي ، تظل المسافة النفسية والخلقية والمناقبية بين العصرين ، ضيقة بشكل مذهل .

ويظل غضب المتنبي على الواقع السياسي لعصره شرعياً ومبرراً .. ويظل صراخه في وجه ملوك الطوائف شرعياً ومبرراً .. حتى شتائمه لها في الطب النفسي ما يبررها .. لأن الرجل في أعماقه كان عربياً ووحدوياً وثورياً .. ولكن ارتطام حلمه بالواقع التجزيئي العربي ، أخرجه عن طوره ، فاختار العصيان والخروج على القانون .

والخروج على القانون ، هو القاسم المشترك لكل الشعراء العرب اليوم ، إذ لا سبيل لكتابة شعر عربي جيد وجديد ، دون التصادم مع التقسيميين ، والشعوبيين في الوطن العربي .

وأمام هذا الثوب المرقع الذي هو الوطن العربي ، لا يمكن للشاعر أن يسكت على هذا الترقيع القومي الذي يشاهده ، وإلا كان هو نفسه شاعراً مرقعاً ..

من هنا حتمية التصادم بين الشاعر الذي يريد أن يغير ، وبين الأشياء التي لا تريد أن تتغير . إنه الصدام القديم الأزلي بين المطرقة وبين الحجر ، بين المسمار وبين الخشبة ، بين الخنجر وبين الجرح ..

إنني لا أنكر بأنني شاعر تصادمي . وربما كان خطأي الكبير أنني لا أملك غريزة القطيع ، وانصياع القطيع ، وتفكير القطيع ..

وهذه هي مشكلة الشاعر في كل العصور ، فهو بطبيعة تكوينه ، وبطبيعة الإبداع نفسه ، مضطر إلى تغيير العلاقات العضوية والتاريخية السابقة لحضوره .

إن طبيعة الشعر طبيعة انقلابية ، ولا قيمة لشعر ينحني أمام القناعات الجاهزة ، ويأخذ التحية العسكرية للباب العالي ولزوجته ، وللحصان الذي يجر عربته ..

إن المكان الحقيقي للشاعر هو في صفوف المحتجين ، لا في صفوف الموالين ، وليست الغربة التي يعيشها الكاتب إلا نتيجة هذا التصادم اليومي بين الواقع الذي يعيش فيه ، والمثل الأعلى الذي يحلم به .

وفي الظروف الانفجارية التي يمر بها العالم العربي ، مطلوب من الكاتب العربي أن يبقى متأهباً .. ومتحفزاً .. ومشدود الأعصاب كفهد الغابة ، لأن

أي استرخاء في أعصابه وأعصاب كلماته ، يحوله إلى حيوان داجن ، وعصفور من عصافير الكناري التي يلعب بها أطفال المنزل .

الكاتب في الوطن العربي لا يملك خيارين أبداً . إن عليه أن يكون إما في داخل النار .. وإما في داخل الماء ..

وبكلمة أدق .. لا يمكن للكاتب أن يصطاف ستة أشهر في إقليم اللون الأخضر .. ويشتي ستة أشهر في إقليم اللون الأحمر .. وإلا سقط على الحدود الفاصلة بين اللونين ، وخسر الصيف والشتاء .. والأرض والسماء .

وصلتُ إلى الصفحة الألف من كتاب الخليج ..

إنني أحب الكتب التي يتولى طباعتها البحر .. وتتولى نشرها الريح ..

ولي هواية خاصة بجمع الكتب التي غلافها أزرق .. وكلامها أزرق . ومحتواها أزرق . أتابع تاريخ الطموح العربي في هذه المنطقة ابتداء من أيام عمرو بن العاص حتى اليوم .. فأجد أن الخيول التي غمست نواصيها في مياه بحر العرب والمحيط الهندي ورأس الرجاء الصالح ، بدأت تركض من جديد على امتداد شواطئ الإمارات السبع ، والنار التي كانت مشتعلة في عيني البحَّار الرائد ابن ماجد .. بدأت تشتعل مرة أخرى في عيون من تحدروا من صلب ابن ماجد ..

ولذلك عندما استلمتُ الدعوة التي وجهتها إليَّ وزارة الإعلام والثقافة في دولة الإمارات العربية المتحدة ، لأقدم أمسية شعرية هنا ، شعرت بأهمية الشعر ، وأهمية الإمارات العربية المتحدة معاً ..

فالدولة عندما تفكر بالشعر ، وتجعله هماً من همومها اليومية ، فهذا يعني أن قلب هذه الدولة لا يزال يضرب بصورة طبيعية ، وأن وجدانها لا يزال في صحة جيدة ..

فمستوى الأمم يقاس بقدرتها على كتابة الشعر ، أو الإصغاء إليه .

هناك دول ، أيها الأصدقاء ، تعيش بقلب من الحجر أو البلاستيك .

دول أوصدت أبوابها في وجه شمس الشعر ، وطمرت نفسها في الثلج والزمهرير .

دول قطعت جسورها مع الشعر ، وبالتالي قطعت جسورها مع الله .

ثم هناك دول تخاف الشعر ، وتضطهده ، وتعتبره ولداً مشاغباً .. ومخرباً .. وخطراً على النظام العام ..

ثم هناك دول تعتبر الشعر سحراً .. أو خرافة .. أو حفلة استحضار أرواح ، أو عملاً من أعمال التنجيم .. ولذلك فهي تلقي القبض عليه بتهمة السحر والشعوذة .. وتضعه في الزنزانة الانفرادية ...

ثم هناك دول تعتبر أن تحلية مياه البحر ، أكثر أهمية من حلاوة البحور والقوافي ، وأن صوت محرك الديزل أجمل من صوت قلب العاشق ، وأن تدفق الماء من بئر ارتوازي ، يُشق في الصحراء ، أروع من تدفق الينابيع من عينين خضراوين ..

طبعاً ، هذه مواقف من العالم ومن الأشياء لا يمكن تغييرها ، فالذين يعشقون جسراً من الأسمنت المسلح أكثر مما يعشقون قوام امرأة ميساء ، لا نناقشهم في حبهم أو كرههم .. والذين يتحمسون لرائحة الدخان المنبعث من مصنع للحديد والصلب ، أكثر مما يتحمسون لرائحة عقد الياسمين الذي تتزين به حبيبتهم ، لا نقول لهم شيئاً .. وإنما نشكوهم إلى الله ..

إنني لا أهاجم أبداً الدول ذات التكوين اللاشعري ، فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً للحجر ، ولا أستطيع تغيير عواطفه . وإنما أشفق على هذه الدول ، تماماً كما أشفق على عين لا تستطيع أن ترى ، وأذن لا تستطيع أن تسمع ، ويد لا تستطيع أن تكتشف حجم العالم .

فبغير الشعر لا يوجد طموح ، ولا انفلات من محدودية الحواس الخمس ، ولا ارتفاع عن قشرة الكرة الأرضية ، وشوارع الأسفلت السوداء التي نمشي عليها ، أو تمشي علينا ...

وبغير الشعر لا يمكن لمياه الحياة أن تفيض ، ولورق الشجر أن يخضر .. ولمواعيد الحب أن تعطى ، وأن تؤخذ ..

وبغير الشعر لا يوجد حركة لشئ .. لا للريح ، ولا للمراكب ، ولا للأمواج ، ولا للنجوم ، ولا للخيول ، ولا للنهود ، ولا للعصافير .. ولا للأصابع على الورق ، ولا للمشط المسافر في الشعر الأسود ...

الشعر يسبق ولادة الأشياء ويهيئ لها .

الشعر هو الافتتاحية والمقدمة ..

إنه الرحم الذي تنضج في داخله كل التصورات والطموحات والأعمال الباهرة .

قبل أن تتشكل التفاحة تكون تخطيطاً شعرياً ..

وقبل أن يتكون البحر ، والوردة ، والسنبلة ، والمرأة الجميلة ، تكون في بال الله هاجساً شعرياً ..

وقبل أن تتأسس الدول ، تكون في وجدان الشعوب خاطرة شعرية تنتظر من يجسدها ، ويعطيها شكلاً ..

ودولة الإمارات العربية المتحدة هي أحد الأحلام المدهشة في تاريخ التخيل العربي ، وهي واحدة من التجارب الوحدوية العربية الفذة التي يلجأ إليها العربي من حين إلى حين .. ليؤكد ذاته الواحدة .. ويحفظ نوعه وعرضه وتراثه ، وينتقم - ولو انتقاماً متأخراً - من حكم ملوك الطوائف ،

ومن الفكر الفئوي والشعوبي ، والتجزيئي ، الذي جعل من أمتنا العربية فتافيت ورق تمضغها الريح ..

إن دولة الإمارات العربية المتحدة هي الحلم الوحدوي الشعري الثاني ، بعد الحلم الوحدوي الأول الذي حققته سورية ومصر عام 1958 ، وإذا كان الحلم الأول قد تكسر نتيجة للنرجسية ، والأنانية ، وضعف البصر والبصيرة ، فهذا لا يعني أن الحلم بحد ذاته كان هشاً .. ولكن الذين رأوا الحلم البنفسجي الجميل لم يتمسكوا بخيوط الحلم .. فطار منهم ..

درس جميل في القومية العربية يأتينا من الجناح الشرقي لشبه جزيرة العرب . ومعلمنا هذه المرة هو الإمارات العربية المتحدة ...

ومهما يكن من أمر ، فلا خيال العربي ينتهي ، ولا مخيلته تتوقف عن توليد الأفكار والأماني الوحدوية ، وليس الزواج السعيد الذي عقدته الإمارات العربية فيما بينها في 2 ديسمبر 1971 ، سوى دليل على أن العربي وحدويٌ بطبعه . أما العرب الذين يرفضون فكرة الزواج السياسي بحجة أنهم لم يتعودوا على أن يناموا مع غيرهم في سرير واحد .. فسيبقون عانسين إلى يوم القيامة ...

أيها الأحباء ، إنني قادم إليكم من عالم عربي .. قديم .. ومحترق .. ومنتحر .. فامنحوني الولادة .....

أبو ظبي - نيسان (أبريل) 1976

أبو ظبي
(الإمارات العربية المتحدة)

أيار (مايو) 1979

بيني وبين أبي ظبي حالة حب بدأت منذ ثلاث سنوات .

ومن ذا الذي لا يحب الظباء ..

ليس عندي تفسير مقنع لما حدث بيننا . ولكن التفسير النفسي لهذه العلاقة الاستثنائية بين شاعر وظبي .. هو أن الشاعر يبحث دون أن يدري عن المخلوقات التي تشبهه ..

ما وجه الشبه بين الشاعر العربي ، وبين الظبي ؟ تسألون .

كثيرة هي وجوه الشبه بينهما . فالشاعر العربي والظبي ، ينتميان إلى فصيلة من الحيوانات الجميلة ، المكحولة العيون ، الدقيقة القوائم ، الرقيقة ، الحزينة ، التي هي في طريقها إلى الانتحار .. أو الانقراض .

والشاعر والظبي ينتميان إلى فصيلة من الحيوانات العربية ، تولد في الخوف ، وتترعرع في الخوف ، وتموت في الخوف . فصيلة تعيش ليلاً ونهاراً حالة الاستلاب ، والقهر ، والمطاردة .. وتنتظر دائماً من يبلغها أمر القبض عليها حية أو ميتة ..

والشاعر والظبي ، بحساسيتهما المفرطة ، ودقة بصرهما وبصيرتهما ، وقدرتهما على التخيل والنبوءة ، وخبرتهما في التجول داخل الليل وداخل الإنسان ، أصبحا موضع ريبة من أجهزة التنصت العربية . فلا الظبي قادر

على أن يرقص فوق الرمل كما يريد .. ولا الشاعر قادر على أن يكتب فوق الورقة ما يريد ..

في بادية الشام ، كنتُ أسمع وأنا طفل ، أخبار الصيادين الذين يطاردون الغزلان بسياراتهم الأميركية السريعة ، حتى إذا وقف قلب الغزال من التعب والإعياء .. أطلقوا رصاص بنادقهم عليه .. ورموه في صندوق السيارة ..

إن صورة الغزال المكحول العينين ، الدقيق القوائم ، وهو يلهث أمام السيارة الأميركية التي تطارده ، لا تزال محفورة على جدران ذاكرتي ..

ودار الزمان دورته .. وكبرنا .. ولم تتغير الأشياء .

نقص عدد الغزلان في الصحارى العربية .

ونقص عدد الشعراء الذين يتكلمون العربية .

وزاد عدد السيارات الأميركية .. وزادت سرعتها ..

إنني لا أقص عليكم حلماً ، ولا أعرض عليكم مسلسلاً تلفزيونياً ، ولا أقدم لكم فيلماً من أفلام هيتشكوك ..

إنني أقدم لكم الحقيقة ، لا على طبق من الكريستال ، ولكن على طبق من اللحم المحروق ، والدم المتجمد .

لم تعد القضية قضية غزلان وظباء ووعول مهددة بالإبادة .

كلنا ، أيها السادة ، مطاردون بشكل أو بآخر .

الأمة العربية مطاردة . اللغة العربية مطاردة . الشعر العربي مطارد . التراث العربي مطارد . العقل العربي مطارد ..

الأشجار العربية مطاردة حتى لا تثمر ..

النساء العربيات مطاردات حتى لا يلدن ..

الجامعات العربية مطاردة حتى لا تحبل الثورة ..

المآذن العربية مطاردة ، حتى لا تدعو الناس إلى الصلاة ...

إنني لا أقص عليكم حلماً ..

ولكن السيارة الأميركية التي رأيتها في طفولتي تطارد الغزال .. وتسحق عظامه ، هي ذات السيارة التي تطاردنا الآن ، وتحاول أن تسحق عظام كل المارة في الشوارع العربية .

ولا تطالبوني بإعطائكم أوصاف السيارة ، ورقم محركها ، واسم سائقها .. فالسيارة صارت معروفة لديكم جميعاً . وهي تتجول في شوارع الوطن العربي كله . وقد رأيتها أمس من نافذة فندقي في الخليج .

أما ركابها المشبوهون فصورهم معممة على الانتربول الدولي ، وهم مطلوبون أمام جميع محاكم الجنايات العربية .

أيها الأصدقاء .

كان النقد العربي القديم يقول عن الشاعر : إنه يغني شعره .

اليوم . سقط هذا المصطلح النقدي وصرنا نقول عن الشاعر : إنه يصرخ بشعره .

لا يستطيع الشعر أن لا يصرخ في وجه عالم عربي قانع بقناعاته ، ومستريح على مخداته ، وموزع الولاء بين كأسه وسجادة صلاته ، وبين رضاء ربه .. ورضاء زوجاته ..

لا يستطيع الشعر العربي أن يتستر .. أو يتنكر .. أو يكون مهذباً ودبلوماسياً في معركة يُعرون فيها الأمة العربية في الشارع العام ، ويغتصبونها بالتناوب ..

لا يستطيع الشعر العربي أن يكون متفرجاً ، أو سائحاً يعلق الكاميرا برقبته ويلتقط الصور التذكارية ..

لا يستطيع الشعر العربي ، أن يتردد .. أو أن يتساهل .. أو أن يمنح السماح والغفران . إن رقة السيد المسيح لا تناسبنا في الوقت الحاضر .

والشعر العربي بالذات ، وفي هذه المرحلة بالذات ، لا يستطيع أن يكون سمساراً .. ولا قواداً .. لأي نظام يمارس العهر السياسي في وضح النهار .. ويشنق التاريخ العربي في وضح النهار ..

وفي غياب السلاح المعدني الذي تدافع به الأمة العربية عن شرفها ، على الشعر أن يكون البديل ، والرديف .

وإذا لم يكن بوسع الشعر أن يجتاح القلاع والحصون ، وإذا لم يكن بوسعه احتلال الأرض احتلالاً مادياً ، فإنه يستطيع أن يحتل النفس البشرية ، احتلالاً ثقافياً كاملاً على المدى الطويل .

إن أهمية الشعر تكمن في قدرته على الصراخ ...

وربما كانت أبو ظبي هي المكان المثالي الذي أستطيع فيه أن أصرخ قليلاً .. وأبكي قليلاً .. وأغضب كثيراً ...

وإن وزارة الثقافة والإعلام في الإمارات العربية المتحدة ، حين دعتني للمشاركة في موسمها الثقافي ، كانت تعرفني ، وتعرف أن غريزة الصراخ داخلي ، هي كتركيب دمي ، ولون عيوني ، قدر لا يمكنني أن أهرب منه ..

وأعترف لكم ، أن وزارة الثقافة والإعلام في الإمارات العربية المتحدة ، لم تحاول أن تفتش ملابسي .. أو تقرأ أوراقي .. أو تغسل دماغي .. وإنما تصرفت معي بمنتهى الحضارة .. وتركتني أصرخ بحرية ، كما لو كنت أصرخ في هايد بارك كورنر في لندن ..

الله .. كم أنا سعيد (بأبي ظبي) كورنر ..

أبو ظبي - أيار (مايو) 1979

الجماهيرية العربية الليبية

طرابلس 1975

1

أحمل إلى الشعب العربي في ليبيا أحلى ما أملك .. وأعز ما أملك ..

قلبي .. وكلماتي ..

حقائب الشعراء صغيرة ..

ولكنها تسع الكون كله ، بشموسه وأقماره ، وليله ونهاره ، وغاباته وبحاره ..

حقيبتي صغيرة .. ولكنني خبأت لكم فيها كنزاً من الكلمات ..

والكلمات ، أيها الأصدقاء ، طيور بحرية تثقب قميص السماء الأزرق بمناقيرها الحادة .. وتخترق الأبعاد دون تأشيرة دخول ..

الذين يطلبون من الكلمة تأشيرة دخول .. أو يفتشون ثيابها .. وحقائبها بالأجهزة الألكترونية ، يضحكون على أنفسهم .

فالكلمة تنتقل في دم الناس، وفي خلاياهم، وفي أنفاسهم. وليس ثمة جهاز، مهما بلغت قدرته وحساسيته، يستطيع إكتشاف كمية الغضب في دم إنسان ما...

وليس ثمة عدسة في العالم، تستطيع تصوير دموع الشعب قبل أن تتشكل ..

ولم يخترع اليابانيون حتى الآن جهازاً يتنبأ بنوع الجنين المتكوم في رحم القصيدة ..

تلك هي معجزة الكلمة .

إنها أشبه بالنباتات الاستوائية التي تكبر .. وتزهر .. وتتوالد في عتمة الظنون ..

إنها هذه الزهرة الشيطانية ، السرية الرائحة ، التي لا تستطيع الكلاب البوليسية أن تكتشفها ..

2

الكلمة هي أول شجرة زرعها الإنسان على باب بيته ، يوم كان الله لا يزال يواصل تجاربه على اللون الأخضر ..

أول نجمة اهتدى بها الإنسان قبل اختراع الشمع ، والقناديل ..

أول وسيلة اتصال ، قبل أن يكون البريد، والأقمار الصناعية ..

أول وردة بيضاء خرجت من دواة الحبر .. يوم قوارير العطر لم تخترع بعد ..

الكلمة هي أول محاولة للرسم ، يوم الفراغ لم يملأه أحد .. والألوان لم تنفصل عن بعضها، ولم تكتمل شخصيتها ..

أول تجربة صوتية .. يوم كان العالم مسكونا بالصمت.

وهي أول وأقدم منشور ثوري كتبه الإنسان، احتجاجا على سوء توزيع الثروة .. وعلى غياب العدل ، وغياب الحرية.

والكلمة ، بعد ذلك، هي الانقلاب الوحيد في التاريخ ، الذي يستعمل أدوات الحضارة من ورق .. وحبر .. وأقلام .. لتغيير الشرط الإنساني .. وتغيير العالم ..

3

يقول الكتاب المقدس :

" في البدء كانت الكلمة .. "

وهذا يعني بوضوح ، أن الكلمة جاءت ، من حيث الترتيب الزمني للخلق ، قبل العناصر الأربعة : الماء .. والنار .. والهواء .. والتراب ..

كما أنه يعني بداهة ، ومنطقياً ، أن الكلمة كانت قبل السلطة ، وقبل السجون ، وقبل محاكم التفتيش ، وقبل الكرابيج .. والزنزانات .. والمشانق .. وساحات الإعدام .

ولأن الكلمة قديمة قديمة .. وعريقة عريقة .. فإن رحل البوليس ، عندما يحقق معها ، يتحاشى التطلع في عينيها ، حتى لا يبكي .. أو ينهار فوق أوراق ملفاته ..

لماذا تتحمس ليبيا للشعر .. وتتجمل له .. وتتكحل له .. وتلبس له أساور الذهب ، وخواتم الفيروز ؟

لماذا تنتظره على شرفتها البحرية ، كما تنتظر العاشقة عودة حبيبها المسافر ؟

لماذا تضئ ليبيا القناديل لهذا الطفل الذي يخبئ في جيوبه الأزهار .. والجنادب .. والكواكب .. والمنشورات الثورية ؟

لماذا تجلس أمام سريره متيمة ، وتغمر خديه بالقبلات ، وتطعمه حلاوة اللوز والسكر ؟

لماذا تفعل ليبيا كل هذا للشعر ؟

لماذا تهتم بهذا الفن السماوي ، وعندها من كنوز الأرض ما يغنيها عن كنوز السماء ؟

إن الجماهيرية العربية الليبية ، تضع الشعر في بؤبؤ عينيها .. لأن وجدانها لا يزال نظيفاً ، ولأن إحساسها بالكلمة لا يزال رهيفاً .. ولأن عروبتها لا تزال صافية كفيروز السماوات ..

لأن الذين يخططون لليبيا الحديثة ، يعرفون أن أية حضارة لا تدخل في حسابها قلب الإنسان هي حضارة بلا جذور ولا أعماق ..

الذين يخططون لليبيا الحديثة ، يعرفون أن كل إنجازات الإنسان المادية ، وكل آلاته ومختبراته وأقماره الصناعية وآبار نفطه ، لا تساوي دمعة واحدة تسيل على خد طفل ..

الذين يخططون لليبيا يعرفون أن الشعر يولد مع الثورة وفي الثورة .. وأن كل ثورة تطمح إلى تغيير العالم ، لابد أن تتحالف مع الشعر وتخطط معه لرسم مستقبل الإنسان .

في عام 1966 حملتُ أوراقي إلى ليبيا وقرأتُ شعراً ..

وفي عام 1975 أحمل أوراقي من جديد لأقرأ شعري ..

ولكن هل أنتم أنتم ؟ .. وهل أنا أنا ؟ .. وهل الشعر هو الشعر ؟ .. بكل تأكيد لا ...

فخلال تسع سنوات حدثت ألوف التحولات في بنية المجتمع العربي .. وجرف الطوفان ألوف الخرافات المستوطنة في تلافيف العقل العربي ..

خلال هذه الحقبة ، وُلدت ثورة الفاتح من سبتمبر كوردة جميلة في صحارى الملح والعطش ..

تغير شكل الشمس .. وشكل الشجر .. وشكل الإنسان الليبي .. وشكل كبريائه وطموحاته ...

وخلال هذه الحقبة كسر الشعر العربي رخامة قبره وخرج .. وكسر قوانين الدفن ومراسيمه وخرج .. وأعلن عصيانه على الموت وخرج .. صار الشعر خارجاً على القانون ..

إن الشعر والثورة يلتقيان عند هذه النقطة بالذات . نقطة الخروج على القانون ..

فكما أن الثورة تأتي لتقتلع ، وتحرق ، وتجرف أنقاض الأنظمة القديمة .. فإن الشعر أيضاً يأتي ليجرف كل السحرة والثعابين والدجالين ومرتزقة الكلمة ، ويلغي كل أنماط التعبير التي تحولت مع الزمن إلى تحف أثرية ، وصناديق خشبية لا تحتوي على شئ .. ولا تقول شيئاً .. ويؤسس لغة جديدة تكون بمساحة الطموح ، والتطلع ، والمغامرة الفذة .

يتلاقى الشعر والثورة في ثلاث نقاط رئيسية هي : الطفولة ، والتحريض ، والجنون ..

وكما لا يمكن للشعر أن يتخلى عن طفولته وجنونه وقدرته على التحريض ، فإن الثورة أيضاً لا يمكنها أن تتخلى عن هذه المقومات الرئيسية .. وإلا تحولت إلى مؤسسة عثمانية .. وتحول الثائر إلى موظف من الدرجة العاشرة في مصلحة الضرائب ..

كانت هزيمة حزيران 1967 إعلاناً عن سقوط العقل العربي القديم بكل أسسه العنكبوتية ، والغيبية ، والرومانتيكية ، وإيذاناً بولادة عقل عربي جديد يقوم على هندسة أخرى ..

لذلك كان لابد للشعر أن يشترك في التحريض على إسقاط العهد العربي القديم .. وتغيير كل المعادلات العربية القائمة على التبصير ، والتنجيم .. وقراءة الكف ..

إن ثورتنا على التخلف يجب أن تكون كاملة وشاملة . وتحرير النفس العربية والجسد العربي من الكوابيس والشيزوفرينيا ، والاحتقان الفكري والجنسي ، لا يقل أهمية عن تحرير أي جزء من أجزاء الوطن العربي من الاستعمار الصهيوني .

إننا مع الأسف ، ورغم كل دعاوى التحرر التي نطلقها ، لا نزال مسكونين بألوف العقد والانحرافات والموروثات الجاهلية ، ولا يزال شهريار الملك يقطع رؤوس نسائنا في النهار .. ويضاجعهن في الليل ...

5

في الجماهيرية العربية الليبية ..

تنتهي الإجازة الطويلة التي أخذتها الكلمة العربية ، وقضتها في الأكل .. والنوم .. واصطياد الذباب ..

تنتهي فترة جلوس القصيدة في المقهى ، ولعب الورق ، وارتشاف القهوة المُرَّة .. وتدبيج المدائح .. وتأليف المواويل ..

في الجماهيرية العربية الليبية ..

يطرأ تحول كبير على بنية اللغة العربية ، واشتقاقاتها وجذورها ..

تهرب المفردات من قاموس (محيط المحيط) .. وتفجر كل ذرة تراب من الخليج إلى المحيط ..

تخرج اللغة العربية من هدنتها الطويلة ، لتلبس ملابس الميدان ، وتقود الفتح باتجاه أرض الروم ..

يتغير عدد الحروف الأبجدية .. ويصبح الثمانية وعشرون حرفاً .. ثماني وعشرين كتيبة ، بمشاتها .. ودروعها ، وناقلات جنودها ، ومدفعيتها ، وطيرانها ..

تصبح السين سيفاً يرفعه عقبة بن نافع ..

وتصبح الألف على شكل ماسورة مسدس ..

وتصبح الحاء حصاناً يركبه عمر المختار ...

طرابلس 1975

الفهرس